

اللَّهُمَّ

فِي ضَوْءِ التَّصَوُّرِ الْقُرْآنِيِّ

«دراسة مفكرة»

دكتور
محمد اللواتي السني

الأستاذ المساعد بقسم أصول الدين

بالمحساء

مقدمة

كلمة في المنهج :

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد :
فنود بادی ذی بدء أن ننبه على أربعة أمور تتعلق بالمنهج الذى التزمناه فى هذا البحث :

الأمر الأول هو قرآنية المنهج أو إسلاميته - إذا جاز هذا التعبير - فهذا البحث، كما سيتضح للقارى، يستوحى أفكاره من العقيدة الإسلامية نفسها، ويستمد تصوراتهِ من القرآن الكريم ذاته، دون أن يميل به الهوى، أو الرغبة فى ارتداء زى التفلسف، إلى الأخذ من هذا المصدر أو ذاك من تلك المصادر الفلسفية، أو المباحث الكلامية التى أنتجتها عقول بشرية قاصرة، وحيرتها أقلام إنسانية عاجزة، فأدى ذلك فى كثير من الأحيان إلى أن انبهت فيها الحقائق، والتبس الحق بالباطل، واختلطت فيها التصورات الإيمانية الصحيحة بالمفاهيم الإنسانية الفاسدة .

ومنطلقنا فى ذلك أن الإسلام هو منهج مستقل ذو خصائص متميزة من ناحية التصور الاعتقادى، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها، ومن ناحية القواعد الأخلاقية التى تقوم عليها هذه الارتباطات^(١) منهج له تصور كلى متكامل عن الألوهية والكون والحياة والإنسان . وهذا المنهج المتكامل ينبثق أساسا من القرآن الكريم، هذا الدستور الإلهى المجيد الخالد الذى أنشأ للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا، كان يعز على خيالها تصوره - مجرد تصور - قبل أن ينشئه لها هذا القرآن إنشاء .

ولا شك أن وجود هذا المنهج الإسلامى المتكامل، والتميز عما عداه من سائر المناهج،

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن م/١٠/٤٤٠ .

يقتضى من الباحث المسلم - إذا أراد النجاة من الزلل فيما يكتب عن الإسلام - أن يتجه إلى منهج القرآن مباشرة، فيتلقى منه هذا التصور الكلى الشامل الصحيح بدلا من أن يلجأ إلى التصورات المضطربة، والمفاهيم الخاطئة التي تتضمنها النظريات الفلسفية والمباحث الكلامية، تلك النظريات والمباحث التي نشأ منها تخليط كثير، شاب صفاء التصور الإسلامي الرفيع، وصغر مساحته، وأصابه بالسطحية مما جعل الفلسفة الإسلامية - ومعها مباحث علم الكلام - تبدو في نظر الكثيرين وكأنها غريبة غريبة كاملة على الإسلام وطبيعته وأسلوبه^(٢).

ولا يظن ظان أننا نهدف من وراء هذا الكلام إلى استبعاد فلسفة المسلمين وعلم الكلام جملة من تراثنا الإسلامي العتيق، أو أننا نحقر قيمة البحوث العقلية والشرحات الفكرية التي جادت بها قرائح هؤلاء الرجال من فلاسفة ومتكلمين، رغم أنها لم تكن في كل الحالات تعبيراً صادقا عن حقيقة التصور الإسلامي في المسائل التي عالجوها.

نحن لا ننكر أن فلاسفة الإسلام كانت لهم جهود طيبة في مجال الفكر الفلسفي والنظر العقلي، ذلك أنهم قد عكفوا على الفلسفة اليونانية، بعد أن ترجمت إلى اللغة العربية، فقرأوها قراءة واعية، وهضموها هضمًا جيدا، وشرحوا مسائلها شرحا وافيا - وخاصة ابن رشد -^(٣) وعلقوا عليها تعليقات دقيقة، ونقدوا بعض أفكارها، وحاولوا التوفيق بين ما تعارض من نظرياتهما، وأضافوا إليها نظرياتهم وآراءهم الخاصة، ثم كان لهم بعد ذلك كله فضل الحفاظ على هذا التراث ونقل هذه المعارف برمتها إلى أوروبا المسيحية، ومن هنا كانت الفلسفة «الاسكولائية» المسيحية مدينة، في بعثها وتوجيهها وفي كثير من مسائلها وموضوعاتها، للفلسفة الإسلامية^(٤).

وحسبنا دليلا على هذا أنه ليس في علماء أوروبا الآن من ينكر أن فلسفة أرسطو ومنطقه وعلومه لم يسمع بها الغرب إلا على لسان أبي الوليد ابن رشد الفيلسوف المسلم وفيلسوف قرطبة، ولسان أتباعه من أمثال موسى بن ميمون، وليس هناك من ينكر ما كان لهذا التعليم من

(٢) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٠، ١١.

(٣) استطاع أبو الوليد ابن رشد أن يفسر آراء أرسطو تفسيرا لم يسبقه إليه أحد من شراح الإغريق أنفسهم، ولذا لا عجب أن وصفه مسيحيو الغرب في القرن الثالث عشر الميلادي وما تلاه من القرون بأنه الشارع الأكبر.

(٤) د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية ١٥/١ - ١٦، ١٦٠/٢.

أثر واضح في فلسفة أوروبا عن طريق القديس توماس الأكويني الذى استعار جل آرائه ونظرياته وحلوله لمعضلات الفلسفة من أبى الوليد ابن رشد^(٥).

كما أننا لا ننكر - من جهة أخرى - أن هؤلاء الفلاسفة لم يدخروا وسعا في محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، أو بين الشريعة والحكمة، قصدا إلى تأييد الحقائق الدينية عن طريق فلسفة العقيدة وإقامتها على أسس عقلية، وإثبات أن ما جاء به الشرع لا يتعارض وما اهتدى إليه العقل، غير أن محاولاتهم في هذا الصدد لم يقدرها النجاح الكامل، ولم تبرا تماما من الانحرافات، بل قادتهم - في بعض الأحيان - إلى التردى في بعض الأخطاء الجسيمة التى كانت سببا في الحكم عليهم بالزيف والضلال من جانب بعض علماء الإسلام، وحسبنا أن نعلم أن الإمام أبا حامد الغزالي قد صنف كتابا خاصا، هو كتاب «تهافت الفلاسفة»، في نقض مذاهب الفلاسفة وكشف عوارها، والتدديد بما انطوت عليه من أخطاء وانحرافات.

والسبب في ذلك أن هناك جفوة أصيلة - لا يمكن تجاهلها - بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الصحيحة وتلك التصورات البشرية السقيمة التى تتضمنها الفلسفات الإنسانية، كما أن هناك مفارقة كبيرة بين الطبيعة الكلية للتصور القرآنى التى تخاطب الكينونة البشرية جملة بكل مقوماتها وطاقاتها، وطبيعة التصور الفلسفى التى تخاطب الفكر البشرى وحده خطابا باردا مصوبيا في قالب المنطق الذهنى الجاف^(٦).

ومن هنا يمكن القول بأن التصور الإسلامى الصحيح لمسائل العقيدة لا يمكن أن يلتبس عند أولئك المفكرين الذين أشرنا إليهم آنفا والذين يطلق عليهم وصف فلاسفة الإسلام؛ لأن فلسفة هؤلاء لم تبرا من التأثر بالفلسفة اليونانية، بل لعلها لم تبرا كذلك من التأثر بالفلسفة الفارسية والهندية^(٧)، وهى فلسفات غريبة في روحها عن روح الإسلام.

(٥) د. محمد عبدالله دراز: الدين ص ١٣، د. محمود قاسم: نظرية المعرفة عند ابن رشد.

(٦) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته، ص ١٠.

(٧) ذكر ابن النديم في كتاب «الفهرست» أسما من نقلوا إلى العربية كتب العلوم الفلسفية في عهد العباسيين عن اليونانية والفارسية والهندية، كما جاء في كتاب «أخبار العلماء» في ترجمة «الكندى» أنه اشتهر في الملة الإسلامية بالبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية.

وأما فيما يتعلق بعلم الكلام فنحن لا ننكر أيضا أن رجاله قد نهضوا بنبعة دينية ثقيلة، وقاموا بجهد مشكور في سبيل الغاية الجليلة التي كانوا يستهدفونها من وراء هذا العلم، وهي تقرير العقائد الدينية كما وردت في الكتاب والسنة، وإثباتها بالحجة والبرهان، والتصدي للدفاع عنها ضد شبهات المخالفين والمبطلين، وتفنيد الآراء والنظريات المخالفة لهذه العقائد^(٨).

غير أن هذا العلم كانت له أيضا عيوبه وأخطاؤه وزلاته، فقد نشأت فيه - خلال تطوره - انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامي الصحيح، كانت سببا في نفرة الناس منه^(٩). وربما كان أبرز هذه العيوب - فيما يتعلق بقضية الكون أو العالم التي هي موضوع بحثنا - أن المتكلمين لجئوا في البرهنة على حدوث العالم إلى أدلة جدلية معقدة مثل دليل الجوهر الفرد الذي يبنى على مقدمات ظنية مطولة، يتعذر فهمها على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل فضلا عن عامة الناس، وذلك لما تتسم به هذه المقدمات من خفاء وتفرع يمنع ثبوت المدعى بها، فضلا عن مجافاة هذا الدليل للأدلة القرآنية التي تتسم بالوضوح والجلال، والتي تتخاطب الحس والعقل والفطرة والكينونة الإنسانية بجملة^(١٠).

ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد بعض الباحثين يقررون أن كلا من الفلسفة المدرسية وعلم الكلام ليس جديرا بأن يطلق عليه اسم «الفلسفة الإسلامية»، وينادون - في الوقت نفسه - بضرورة إنشاء فلسفة إسلامية خالصة، أو تصور إسلامي أصيل، يستمد أفكاره ومبادئه وحقائقه ومقوماته من أصول الإسلام الصحيحة المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبذلك يمكننا أن نطلق على هذا الفكر الإسلامي الصافي المطهر من كل الشوائب والانحرافات اسم الفلسفة الإسلامية أو التصور الإسلامي، وهذا في رأي اتجاه حميد ينبغي أن يتبناه كل من يتصدى للبحث في مسائل العقيدة.

وقد كان الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - في طليعة الباحثين الذين نادوا بهذا الاتجاه القويم، وألحوا في الدعوة إليه وضرورة السير على دربه، وذلك حيث يقول: «إن التصور

(٨) انظر الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٣٩، ٤٠ وأبو الحسن العامري: الإعلام بمناب الإسلام.

(٩) د. محمد السنهوري: مدخل إلى علم الكلام، ص ٦١ - ٧٥.

(١٠) انظر ابن رشد: مناهج الأدلة، ص ٣٥، وابن تيمية: كتاب النبوت، ص ٢٧، ٤٢، ٥٣.

الإسلامى لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ إلا حين نلقى عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم «الفلسفة الإسلامية» . وبكل مباحث «علم الكلام» وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضا، ثم نعود إلى القرآن الكريم نستمد منه مباشرة مقومات التصور الإسلامى، مع بيان خصائصه التى تفرد به من بين سائر التصورات. ولا بأس من بعض الموازنات - التى توضح هذه الخصائص - مع التصورات الأخرى، أما مقومات هذا التصور فيجب أن تستقى من القرآن الكريم مباشرة، وتصاغ صياغة مستقلة تماما»^(١١).

والأمر الثانى الذى نود أن ننبه إليه هو أن المنهج الذى سيتحرك هذا البحث فى إطاره - كما هو واضح من العنوان - هو منهج المقارنة أو الموازنة؛ أعنى المقارنة بين التصور الإسلامى الأصل، وغيره من التصورات الأخرى فى المسائل التى تبدو فيها الموازنة أمرا ضروريا. والقصد من ذلك بيان ميزة التصور الإسلامى، وإيضاح خصائصه، وإبراز سائته ومقوماته التى ينفرد بها عن سائر التصورات، ذلك أن الفضل لا يبين إلا بالمقارنة، والشئ لا يعرف إلا بضده كما يقولون؛ إذ بضدها تتميز الأشياء.

والأمر الثالث أن هذا البحث لا يزعم أنه سينحو - فى عرضه للأفكار ومقارنة بعضها ببعض - منحى البسط والاستقصاء وتتبع الجزئيات والفرعيات، وإنما سيكتفى بعرض أهم الأفكار فى صورة مركزة - قدر الإمكان - تاركا الحديث فى التفصيلات والجزئيات إلى فرصة أخرى، وذلك نزولا على الاعتبارات التى تفرضها طبيعة الكتابة فى الدوريات أو الحوليات من وجوب مراعاة الاقتصاد فى معالجة البحوث، كى تتسع الحولية لأكبر عدد ممكن من الموضوعات .

والأمر الرابع : أن هذا البحث سيحاول - قدر الاستطاعة - أن يبين كيف أن الحقائق العلمية الكونية التى اهتدى إليها العلماء، وأصبحت مسلّمات علمية لا يتطرق إليها الشك، تقف وراء التصور الإسلامى للكون، وتسير فى ركابه، وتشهد بأنه التصور الحق الذى لا مناص من التسليم به والانقياد لمقرراته، ولا غرابة فى ذلك؛ لأن القرآن كلام الله تعالى، والكون

(١١) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ١١ .

خلق الله تعالى ، وما دام الذى خلق هو الذى قال فيجب بداهة ألا تتعارض حقيقة قرآنية مع حقيقة كونية .

ولسنا من السذاجة بحيث ندعى أن العلوم الكونية كلها قد وردت في القرآن الكريم ، وإنما قصدنا أن نؤكد ما في علوم الطبيعة من نفحات دينية ، لأن تعمقها يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى وعلمه وقدرته وحكمته . والعلم في الإسلام هو أكبر مكمل للإيمان؛ إذ أنه حتى لو اتفق له أن يتقدم بمعزل عن الإيمان فإنه يؤدي إليه ويأوى منه إلى ركن شديد^(١٢) . ومصدق هذا قول الله تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

وبعد ، فإن القضايا التي سيعالجها هذا البحث تتمثل في المسائل الآتية :

- ١ - حدوث الكون .
 - ٢ - دلالة الكون على خالقه .
 - ٣ - نفى الألوهية عن عناصر الكون .
 - ٤ - سنن الكون .
 - ٥ - تسخير الكون للإنسان .
 - ٦ - نهاية الكون وفناؤه .
- ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكتب لنا السداد والتوفيق ، فإنه - سبحانه - نعم المولى ونعم النصير .

(١٢) الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ... ص ١١٨ وإبراهيم بن على الوزير: على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى ، ص ١١٧ .

حدوث الكون

يقصد بالكون في التصور الإسلامي كل ما خلقه الله تعالى مما يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف^(١٣)، وهو بهذا المعنى مرادف لكلمة «العالم» الذي هو اسم يطلق على كل جنس ما يعلم به الخالق، أعنى ما سوى الله سبحانه وتعالى من عالم الأفلاك، وعالم العناصر، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الأعراض إلى غير ذلك^(١٤). ومعنى هذا أن الكون يشمل كل الأشياء التي خلقها الله - تعالى من أحياء ومجادات وعوالم روحية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله جل جلاله، وهذه القوى المختلفة والكائنات المتعددة ليست منفصلة بعضها عن بعض، وإنما هي أجزاء مترابطة ينتظمها سلك واحد، وتؤلف وحدة متكاملة^(١٥).

والقرآن الكريم يقسم الوجود إلى نوعين : أحدهما عالم الشهادة، وهو هذا العالم المحسوس أو الكون المشهود، وأداة معرفته العقل، وطريقة معرفته الملاحظة والتجربة، وهذا الكون المشهود هو الذي يعيننا بصفة خاصة في هذه الدراسة، وهو محور البحث وقطب رحاه . وثانيهما عالم الغيب أو الكون غير المشهود الذي نص عليه القرآن، وأنتى على المؤمنين به في

قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)^(١٦)

وليس للعقل من سبيل إلى معرفة هذا العالم؛ لأنه فوق طور العقل، وإنما طريق معرفته البصيرة أو الكشف الروحي، والوحي أكمل أشكاله ؛ لذلك كان الطريق إلى معرفة مخلوقات

(١٣) الزمخشري : الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ١٠٦/٢ .

(١٤) الشريف الجرجاني : حاشيته على الكشف للزمخشري ٥٤/١ .

(١٥) د. عبدالحليم محمود : في رحاب الكون، ص ٨ .

(١٦) البقرة : ٢ ، ٣ .

عالم الغيب - كالملائكة والجن والشياطين والروح والعرش والكرسى والجنة والنار - هو الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء عليهم السلام^(١٧).

والإيمان بعالم الغيب أو الكون غير المشهود هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيرتقى من مرتبة الحيوان الذي يقف عند حدود ما تدركه الحواس، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

والقرآن لا يكلف الإنسان أكثر من الإيمان بهذا الغيب إيماناً مطلقاً، لأنه من خصوصيات علم الله تعالى وليس من خصوصيات علم الإنسان.

كقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ

الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(١٨)

وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ

مُرْسَاهَا)^(١٩) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا)^(٢٠) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)^(٢١)

وما دام الأمر كذلك فالأولى بالإنسان أن يشغل نفسه بمشكلات العمل في الحياة الواقعية، والقيام بمسئولية الخلافة في هذه الأرض، وأن يصون طاقته الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة على الإحاطة به، وعليه أن يكل أمر الغيب إلى

(١٧) أحمد محمد جمال : محاضرات في الثقافة الإسلامية، ص ٧١ .

(١٨) الإسراء : آية ٨٥ .

(١٩) النازعات : ٤٢ - ٤٤ .

طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذى يحيط بالظاهر والباطن والغيب والشهادة^(٢٠).

ومنطلق نظرة الإسلام إلى الكون أنه بكل ما يحتوى عليه - من سماوات وأرضين، وأفلاك ومدارات، وكواكب وسدوم وبحرات وشموس ونجوم، ونباتات وجبال، وعوالم حية، ومخلوقات غير مشهودة - محدث ومخلوق لله تعالى بعد عدم. فالكون لم يوجد نفسه بنفسه، ولم يخرج إلى الوجود صدفة أو نتيجة تطورات طبيعية مجهولة، كما يتوهم أهل الإلحاد من الفلاسفة القائلين بالطبيعة والخابطين في ظلمات المذاهب المادية، وإنما خلقه الله تعالى بعد عدم، وأنشأه إنشاء بكل أشيائه وكنائنه، وقصد إيجاده على هذا النحو المعين^(٢١). كما قال سبحانه:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)^(٢٢)

وقال تعالى :

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)^(٢٣)

(٢٠) سيد قطب : في ظلال القرآن م ٣٩/١ ، ٤٠. وانظر أيضا: على خليل أبو العينين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ص ٨٩.

(٢١) د. عبدالكريم عثمان : معالم الفلسفة الإسلامية، ص ٢١. وسيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ... ص ٨٥.

(٢٢) الأنعام : آية ١٠٢ .

(٢٣) الفرقان : آية ٢ .

وقال جل ثناؤه :

(٢٤)

(إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

وقد عبر القرآن الكريم عن مفهوم «الحدث» أو «الإحداث» بألفاظ متعددة مثل: «الخلق» و«الفطر» و«الإبداع» و«الجعل» و«القضاء» و«الإنبات» و«الإنشاء»، وهذه الألفاظ كلها تنول إلى معنى الإيجاد والتكوين، مع الدلالة على القدرة التامة والإرادة النافذة .

يقول الراغب الأصفهاني في بيان معنى «الخلق»: «الخلق أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء»^(٢٥). ومن الآيات التي عبر فيها القرآن الكريم عن الإحداث والإيجاد بلفظ «الخلق» قوله تعالى :

(يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)^(٢٦)

وقوله سبحانه :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)^(٢٧)

وأما استخدام «الفطر» بمعنى الإحداث والإيجاد فقد أوضحه صاحب لسان العرب بقوله: «وفطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم، والفطرة: الابتداء والاختراع، وفي التنزيل: «الحمد لله فاطر السماوات والأرض» قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدرى ما فاطر

(٢٤) القمر: آية ٤٩ .

(٢٥) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: خلق .

(٢٦) النساء: آية ١ .

(٢٧) الأنعام: آية ١ .

السموات والأرض حتى أتانا أعرابيان يختصمان في بشر، فقال أحدهما: أنا فطرتهما أى ابتدأت حفرها ، وذكر أبو العباس أنه سمع ابن الأعرابي يقول: أنا أول من فطر هذا؛ أى ابتدأه»^(٢٨).

وبهذا التفسير للفظ «الفطر» أخذ كثير من مشاهير المفسرين كالطبرى^(٢٩)، والزنجشیری^(٣٠)، وفخر الدين الرازی،^(٣١) والشوكاني^(٣٢)، وغيرهم. ومن الآيات التى عبر فيها القرآن عن الإيجاد والإحداث بلفظ «الفطر» قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(٣٣)

وقوله تعالى :

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(٣٤)

وقوله :

(قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)^(٣٥)

وأما التعبير عن الإيجاد بلفظ «الإبداع» فقد أوضحه الراغب الأصفهاني بقوله: «الإبداع: إنشاء صنعة بلا اقتداء ولا اقتداء ... وإذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء»

(٢٨) ابن منظور: لسان العرب ٥٦/٥ .

(٢٩) تفسير الطبرى ٢٨٣/١١ تحقيق محمود شاكر .

(٣٠) الكشف ٤٩٧/١ .

(٣١) مفاتيح الغيب ١٦/٤ .

(٣٢) فتح القدير ٩٧/٣ ، ٣٣٧/٤ .

(٣٣) فاطر: آية ١ .

(٣٤) الإسراء: آية ٥١ .

(٣٥) الأنبياء: ٥٦ .

بغير آله ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله تعالى، والبديع يقال للمبدع»^(٣٦). وفي لسان العرب أيضاً: «بدع الشيء يبدعه بدعاً، وابتدعه: أنشأه وبدأه .. والبديع: المبدع، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. والبديع من أساء الله تعالى لا بداعه الأشياء وإحداثه إياها ... فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق»^(٣٧).

ونجد التعبير عن الإحداث بلفظ «الإبداع» في قوله تعالى :

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٣٨)

وفى قول الله تعالى : (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةً)^{ط (٣٩)}

وأما استخدام «الجعل» بمعنى الخلق والإيجاد فنجد في قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)^{ط (٤٠)}

فقد حكى الشوكاني عن النحاس قوله: إن جعل هنا بمعنى «خلق» ولذلك لم تتعد إلا إلى

(٣٦) الراغب الأصفهاني : المفردات «بدع» .

(٣٧) لسان العرب ٦/٨ .

(٣٨) البقرة : آية ١١٧ .

(٣٩) الأنعام : آية ١٠١ .

(٤٠) الأنعام : آية ١ .

مفعول واحد، ونقل عن القرطبي قوله: إن الجعل في هذه الآية بمعنى الخلق لا يجوز غيره^(٤١).
كما نجده في قوله تعالى:

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)^(٤٢)

فإن معنى الآية: أنه تعالى خلق لكم من جنسكم أزواجا لتأنسوا بها، وخلق لكم من الأزواج البنين والحفدة، والحفدة هم أولاد الأولاد، وقيل: البنات الخادמות لأبيهن^(٤٣).

وأما استخدام لفظ «القضاء» ولفظ «الإنبات» ولفظ «الإنشاء» في الدلالة على معنى الإيجاد والإحداث، فقد جاء الأول في قوله تعالى :

(فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)^(٤٤)

أى خلقهن وأحكمهن وفرغ منهن^(٤٥). وجاء الثانى في قوله تعالى :

(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا)^(٤٦)

يقول الشوكاني: «يعنى آدم، خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات لكونه أدل على الحدوث والتكوين»^(٤٧). وجاء الثالث في قوله تعالى :

(٤١) فتح القدير ٩٨/٢ .

(٤٢) النحل : آية ٧٢ .

(٤٣) فتح القدير ١٧٨/٣ .

(٤٤) فصلت : آية ١٢ .

(٤٥) فتح القدير ٥٠٨/٤ .

(٤٦) نوح : آية ١٧ .

(٤٧) فتح القدير ٢٩٩/٥ .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) (٤٨)

وقوله تعالى : (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (٧٨)

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٤٩)

ويلاحظ أن التعبير عن إحداث السماوات والأرض وإيجادها بعد عدم قد جاء في القرآن الكريم بلفظ «خلق» أكثر مما جاء بأى لفظ من الألفاظ المذكورة آنفاً، حيث تكرر هذا اللفظ خمسا وأربعين مرة . ولعل هذا راجع إلى أن لفظ «خلق» أكثر دلالة على الإيجاد والإحداث من سائر الألفاظ الأخرى، فضلا عما يتضمنه هذا اللفظ من الدلالة على التقدير المستقيم، كما صرح بذلك الراغب الأصفهاني فيما سبق . ويأتى لفظ «فطر» في المرتبة الثانية، حيث تكرر مع السماوات والأرض ثمانى مرات (٥٠). أما لفظ «بديع» فقد تكرر في آيتين اثنتين فقط (٥١) .

كما يلاحظ - من جهة أخرى - أن القرآن قد ربط بين خلق السماوات والأرض وبين كثير من العقائد الإيمانية كإثبات وجود الله تعالى، وتقرير وحدانيته، وبيان سعة علمه وبالغ حكمته، وتنزيهه عن المولود والصاحبة، وإثبات البعث والنشور وغير ذلك من العقائد الإيمانية (٥٢) .

ولا يقف القرآن الكريم عند حد تقرير أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، بل تتابع آياته البينات كالسبل المنهمر، لتقرر في جلاء ووضوح، وفي حسم وجزم أن كل ما تحويه

(٤٨) الأنعام : آية ٩٨ .

(٤٩) يس : ٧٨ ، ٧٩ .

(٥٠) الأنعام : ١٤ ، يوسف : ١٠١ ، إبراهيم : ١٠ ، الأنبياء : ٥٦ ، فاطر : ٦ ، الزمر : ٤٦ ، الشورى : ١١ .

(٥١) البقرة : ١٧ ، الأنعام : ١٠١ .

(٥٢) د. كاسد الزيدى : الطبيعة في القرآن الكريم، ص ٥٥ .

السماء، وما تقله الأرض، وما هو كائن بينهما من موجودات إنما هو من خلق الله تعالى وإبداعه :

فالملائكة أرواح طاهرة مطهرة مخلوقون لله تعالى^(٥٣)، وهم عباد لله سبحانه مكرمون بكرامته لهم، منقادون لا يسبقونه بالقول^(٥٤)، ولا يعصون له أمرا^(٥٥)، وقد وكل الله تعالى إليهم أعمالا خاصة يؤدونها في إذعان وخضوع، منها حمل العرش^(٥٦)، والنزول بالوحي على الأنبياء^(٥٧)، وتدوين أعمال العباد^(٥٨)، واستيفاء أرواحهم عند الموت^(٥٩)، وليس لهم بر بهم - سبحانه - صلة قربي أو نسب^(٦٠) كما زعم المشركون من العرب ، ومنهم خزاعة، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله^(٦١)، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !

والجن أيضا من خلق الله تعالى، وليسوا شركاء له، كما افترى بنو مليح من خزاعة؛ إذ كانوا يعبدون الجن، ويؤمنون بتأثيرهم في الكون زاعمين أن بينهم وبين الله تعالى نسبا، وأن الله - سبحانه - قد اتخذ منهم صاحبة ولدت له الملائكة^(٦٢). وقد رد القرآن على هذه الفرية الشنيعة مؤكدا على أن الجن مخلوقون لله تعالى فكيف يكونون شركاء له^(٦٣)، وعلى أنه - سبحانه وتعالى - منزه عن اتخاذ الصاحبة والولد^(٦٤).

والعرش أيضا من مخلوقات الله العظيمة التي هو أعلم بحقيقتها^(٦٥)، وكذلك

(٥٣) الشيخ محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية ص ٥٨ .

(٥٤) الأنبياء : آية ٢٧ .

(٥٥) التحريم : آية ٦ .

(٥٦) غافر : آية ٧ .

(٥٧) الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٣ ، والنحل : ١٠٣ .

(٥٨) ق : آية ١٧ .

(٥٩) الأنعام : آية ٦١ .

(٦٠) الأنبياء : آية ٢٧ .

(٦١) فتح القدير ٤٠٤/٣ .

(٦٢) الكلبي : كتاب الأصنام ص ٣٤ ، ٤٤ .

(٦٣) الأنعام : ١٠٠ ، الحجر : ٢٧ ، الرحمن : ١٥ .

(٦٤) الأنعام : ١٠١ ، الجن : ٣ .

(٦٥) التوبة : ١٢٩ ، الأنبياء : ٢٢ ، المؤمنون : ٨٦ .

الكرسى^(٦٦). وقد أخرج ابن جرير والبيهقي عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن الكرسى ، فقال: «والذى نفسى بيده ما السماوات السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»^(٦٧) .

وكل الأجرام السماوية الهائلة السابحة في الفضاء الرهيب من صنع يده المبدعة، خلقها من أجل العباد، وسخرها لتحقيق مصالحهم^(٦٨)، فانقادت لأمر بارئها وأذعنت لمشيئته .

والله تعالى هو الخالق المنشئ لكل ما على الأرض من كائنات، فهو خالق الإنسان - أولاً - من طين^(٦٩)، ثم هو خالقه - بعد ذلك - من نقطة من ماء مهين^(٧٠)، ثم هو منشئه في مراحل خلقه المتطور في بطن أمه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل^(٧١). وهو خالق كل ما يمشى على الأرض من دواب غير الإنسان^(٧٢)، وهو سبحانه خالق الجبال^(٧٣) ومنشئ الجنات، ومنبت الزروع والفواكه وكل الثمرات^(٧٤)، وخالق البحار ومسخرها للعباد، ومبدع كل ما تحتوى عليه مما يطعمه الناس ، ويتزینون به^(٧٥) .

هذا، وقد تحدث القرآن الكريم أيضاً عن حدوث الظواهر الطبيعية التي ترتبط بعناصر الكون ارتباطاً سببياً، كالليل والنهار^(٧٦)، فإنها ناشتان أو مسببان عن حركة الشمس ودوران الأرض حولها، وكالرعد والبرق^(٧٧)، فإنها مسببان عن حركة السحب واصطكاك بعضها

(٦٦) البقرة : ٢٥٥ .

(٦٧) فتح القدير ٢٧٣/١ .

(٦٨) الأنعام ٩٧ ، الأعراف : ٥٤ ، النحل : ١٢ .

(٦٩) الأعراف : ١٢ ، السجدة ٧ ، ص : ٧١ .

(٧٠) النحل : ٤ ، المؤمنون : ١٣ ، القيامة : ٣٧ .

(٧١) الحج : ٥ ، المؤمنون : ١٤ .

(٧٢) البقرة : ١٦٤ ، النور : ٤٥ .

(٧٣) النبا : ٧ ، النازعات : ٣٢ .

(٧٤) الأنعام : ٩٩ ، النحل : ١١ .

(٧٥) النحل : ١٤ .

(٧٦) الأعراف : ٥٤ ، الفرقان : ٦٢ ، فاطر : ١٣ ، الزمر : ٥ ، الحديد : ٦ .

(٧٧) الرعد : ١٢ ، ١٣ .

ببعض في الجو، وكإرسال الرياح، وإزجاء السحاب، وإنزال المطر من السماء الذي به حياة الناس والأنعام (٧٨) .

وهكذا لا يدع القرآن الكريم عنصرا من عناصر الكون، ولا ظاهرة من ظواهره، إلا أعلن أن ذلك كله محدث مخلوق، وأنه من إبداع الخالق الكبير المتعال جل جلاله.

(٧٩) هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (

ويكشف لنا هذا الحشد الهائل من المفهومات القرآنية عن خصيصة هامة من خصائص التصور القرآني، وهي خصيصة «الواقعية» أو التحقيق في عالم الواقع، ذلك أن هذا التصور - كما سبق أن رأينا - يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع «مثاليات» لا وجود لها في عالم الواقع .. إنه يتعامل مع هذا الكون الواقعي المتمثل في أجرام وأبعاد، وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار، وقوى وطاقات، لا مع الكون الذي هو «فكرة» مجردة عن الجرم، والشكل والقالب والحركة، ولا مع الكون الذي هو «هبولي» ومادة أولية غير مشكلة ولا محددة، ولا مع الكون الذي هو «صورة» أو «مثال» في العقل المطلق، ولا مع الكون الذي هو عدم أو شبيهه بالعدم ... إلى آخر هذه التصورات البحتة التي تتعامل مع نفسها، ولا تتعامل مع الواقع الكوني إطلاقا .

إن الكون في التصور القرآني - كما أوضحته المفهومات السابقة - هو هذا الخلق المشهود ذو الوجود الخارجى الذى يدركه الإنسان، ويوجه إليه قلبه وعقله: هو هذه السماوات والأرض، وهذه الشمس والقمر والنجوم والكواكب، هو هذه الكائنات المختلفة التى تدب على ظهر الأرض، والتى تحلق فى أجواز الفضاء . والظواهر الكونية هى هذا الليل وهذا النهار، وهذا النور وهذا الظلام، وهذا الفجر وهذا الغروب، وهذا البرق والرعد والمطر، وهذه الأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقى، وذات الآثار الواقعية .

وحين يوجه القرآن الإدراك الإنسانى إلى هذا الكون باعتباره دليلا على وجود خالقه

(٧٨) الأعراف : ٥٧ ، النور : ٤٣ ، الفرقان : ٤٨ ، ٤٩ ، الرم : ٤٨ .

(٧٩) لقمان : ١١ .

ووجدانيته وقدرته وهيمنته وتدبيره وعلمه وتقديره، فإنما يوجهه إلى هذه الخلائق المتحققة في عالم الواقع، التى أبدعها الله من العدم، وقال لها: كوني، فكانت، والتى نسقها الله بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتى هى قانتة عابدة لله تعالى مسخرة بأمره، مؤدية لما أَراده منها ولما سخرها له، على أحسن وجه من الأداء (٨٠).

وتتضح واقعية هذا الكون فى التصور القرآنى حين نقارنه مثلاً بتصور «البراهمية» التى ترى أن الوجود الواحد هو وجود «براهما» - الإله الأعظم - الذى هو خير محض وكمال محض، أما هذا الكون المادى فهو عدم محض وشر محض، غير أن الوجود حلٌّ فى العدم، ومن ثم وجد الشر فى العالم، وخطة الإنسان للتخلص من هذا الشر - وهو كل ما له جسم - تنحصر فى التخلص من هذا الجسم، حتى يعود الوجود الكامن فيه إلى وصفه المطلق، ويتحرر من إسار هذا العدم الناقص الشرير الذى حل فيه .

كذلك تتضح واقعية الكون فى التصور القرآنى حين نوازنه بتصور أفلاطون الذى يرى أن هذا الوجود المادى هو مجرد ظل وانعكاس لعالم المثل، فالشجرة التى نراها ليست هى الشجرة على وجه الحقيقة، بل هى ظل لمثال الشجرة المكنون فى العقل المطلق، والنفس الكلية - التى هى من عالم المثل - هى الصلة بين الأشياء المثالية، كما هى فى العقل المطلق، والأشياء الصورية - غير الحقيقية - التى هى فى عالم المادة الذى نلمسه ونراه .

وحين نوازن هذه التصورات الذهنية المنتزعة من خيالات العقل البشرى وتهويماته - دون تلبس بواقعيات هذا الكون وحقائقه الموضوعية - حين نوازن هذه التصورات بالتصور الإسلامى - كما تقدمه النصوص التى يحفل بها القرآن الكريم - يتبين لنا معنى الواقعية الذى نعنيه فى التصور الإسلامى (٨١) .

ولكن متى وكيف نشأ الكون ؟

سؤال يتطلع العقل البشرى، المولع دائماً باستكناه حقائق الأشياء، إلى معرفة الإجابة

(٨٠) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

عنه . والجواب عن هذا السؤال أن الله تعالى أبداع الكون قبل خلق آدم بأزمان طويلة، لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، ومقاييس الآدميين تجيء دائما نسبية قاصرة محدودة بإزاء خلق البارئ جل جلاله، فليس لنا إذن أن نطمع في الوقوف على بداية وحقيقة النشأة الأولى لهذا الكون؛ لأن ذلك أمر مغيب يعجز العقل البشري عن معرفته، ويقصر دون الإحاطة به (٨٢) .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات تتحدث عن قصة خلق الأكوان وتنوع الأنواع، ولكنها ذكرت مجملة لم تبين فيها تفاصيل الخلق وكيفياته، فمن هذه الآيات ما يصرح بأن السماوات والأرض كانتا أول الأمر رتقا، أى ملتزقتين ففتقها الله تعالى (٨٣)، أى فصل بينهما، ومنها ما يقرر - بصورة مجملة - أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام (٨٤)، ومنها ما يصرح بأنه تعالى خلق الأرض أولا في يومين، وخلق ما عليها من أنواع الحيوان والنبات والجماد في يومين، ثم استوى الى السماء، وهى دخان، فسواهن سبع سماوات في يومين (٨٥)، ومنها ما يصرح بأنه تعالى خلق السماء أولا، ثم دحا الأرض بعد ذلك (٨٦) ولا معارضة بين مدلول هذه الآية ومدلول الآية السابقة، بل الجمع بأنه - سبحانه - خلق الأرض أولا غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ذلك (٨٧). ومن الآيات ما يقرر أنه عندما خلق الله السماوات والأرض كان هناك الماء، وكان عرشه على الماء (٨٨)؛ أى أن العرش والماء خلقا قبل خلق السماوات والأرض .

هكذا يذكر القرآن الكريم قصة الخلق على وجه الإجمال، أما تفصيل خلق السماوات والأرض، وكيفيات تكوينها، وتكوين الشمس والكواكب والأرض من السديم - كما يقول الماديون - أو على طريقة أخرى، وكيف كان الماء؟ وأين كان؟ وكيف كان عرش الله على الماء؟ فكل هذه زيادات لم يتعرض لها النص بالإيضاح والتحديد. وليس لمفسر أن يزيد شيئا على

(٨٢) د. عماد الدين خليل : في التفسير الإسلامى للتاريخ «المسألة الحضارية» المسلم المعاصر .

(٨٣) الأنبياء : ٣٠ .

(٨٤) الأعراف : ٥٤ ، يونس : ٣ ، السجدة : ٣ .

(٨٥) فصلت : ٩ - ١٢ .

(٨٦) النازعات : ٢٧ - ٣٠ .

(٨٧) فتح القدير ٣٧٨/٥ .

(٨٨) هود : ٧ .

مدلول النص في هذا الغيب المستور الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده. كما أنه ليس من الحكمة أن ندخل في تحديد الأيام الستة؛ لأنها غيب من غيب الله أيضاً، وهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها، وإنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق، وفي النظام الذي يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه^(٨٩).

وهكذا يمكن القول بأن قصارى ما يجب على المسلم اعتقاده - في هذا الصدد - هو أن يأخذ تصوير خلق الكون في القرآن كما هو، دون محاولة للخوض فيما هو فوق طور الإدراك البشري؛ لأن هذا تبديد للطاقة في غير ما جدوى، وخبط في التيه بلا دليل. ثم على الإنسان بعد ذلك أن ينفق طاقته العقلية فيما يعود عليه بالخير والمنفعة، وذلك بأن يعمل في استتبار هذا الكون وإعمارها، والإفادة من طاقاته المذخورة، وفي تنمية حياته وترقيتها والسير بها إلى الإمام. ذلك أننا، حيثما تأملنا في قصة خلق الكون في القرآن الكريم، نجد أنها ترتبط دائماً بفكرة تسخيرها لمنفعة الإنسان، وتنوّه بالدور الإيجابي الذي ينتظر من الإنسان أن يقوم به من أجل إعمار هذا الكون، واستخراج كنوزه المخبوءة، والانتفاع بما ادخر له في الأرض من أرزاق وأقوات، ومن قوى وطاقات، يتحقق بها الخير والرخاء للإنسانية جمعاء. وهذه كلها قواعد أساسية لأي نشاط مشعر، ولأي تقدم حضارى فعال على الأرض^(٩٠)، وهي بذلك جديرة أن تكون موضع تفكير الإنسان واعتباره، بدلا من الخوض في قضية غيبية خارجة عن نطاق الإدراك العقلي أخبر القرآن عنها بقوله تعالى:

(* مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ
أَنْفُسَهُمْ)^(٩١)

ومن الأهمية بمكان أن نقرر أن فكرة خلق الكون في التصور الإسلامى تفرق افتراقاً أساسياً عن فكرة الخلق في تصور اليهودية المحرفة، فإذا كان العهد القديم - في صورته

(٨٩) سيد قطب : في ظلال القرآن ١٧٦٢/٣ .

(٩٠) على خليل أبو العينين : فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم ، ص ٩٣ وانظر د. عبد الكريم عثمان: معالم

الثقافة الإسلامية ص ٢١ .

(٩١) الكهف : ٥١ .

المحرقة - (٩٢) يزعم أن خلق الكون قد أتعب الإله حتى استراح في اليوم السابع، حيث جاء فيه ما نصه : «فَأَكْمَلْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكُلَّ جَنْدِهَا (يعنى الكائنات التى خلقت عليها) وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدهسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا» (٩٣) - نقول إنه إذا كان العهد القديم المحرف يصف الإله بالتعب من خلق العالم - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - فإن القرآن الكريم ينكر هذا المفهوم أشد الإنكار، ويعلن أن الكون - مهما عظم في الحس - فإنه يعد شيئا حقيرا إزاء عظمة الخالق الذى لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء، ولذلك نجده يقول :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)^(٩٤)

ويقول :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ
يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٩٥)

(٩٢) روى القول بتحريف العهد القديم عن ابن عباس رضى الله عنه (تفسير الخازن ٢٧٣/١) كما قال به الإمام القرافي المالكي في كتابه الأجوبة الفاخرة، ص ٢١٢، ٢١٤ على هامش كتاب الفارق بين المخلوق والخالق، والإمام ابن قيم الجوزية في كتابه هداية الحيارى، ص ٤٥ - ٤٧. والفاضل رحمه الله الهندي في كتابه إظهار الحق ٣٣/١، ٧٤، ١١٢، ١٢٩، والشيخ محمد عبده في تفسير المنار عند تفسير الآية الثانية من سورة آل عمران والمحقق الدكتور محمد توفيق صدقي في كتابه «نظرة في كتب العهد القديم» ص ١٣١.

(٩٣) سفر التكوين ٢ : ١ - ٣.

(٩٤) ق : آية ٣٨.

(٩٥) الأحقاف : ٣٣.

وتعد هاتان الآيتان الكرمتان ردا مباشرا على التصور الفاسد للعهد القديم المحرف وإبطالا فاضحا لمقالة اليهود - أخزاهم الله - إن الله سبحانه أصابه الإعياء من الخلق فاستراح في اليوم السابع. وقد استند القائلون بأن هاتين الآيتين - أو الأولى منها - نزلت ردا على اليهود إلى أسباب النزول؛ فيها هوذا شيخ المفسرين ابن جرير الطبري يروى عن قتادة أنه قال: «قالت اليهود: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى وقال: «وما مسنا من لغوب»^(٩٦) ويتابعه على ذلك البيضاوي^(٩٧)، والطبرسي^(٩٨)، والشوكاني نقلا عن الواحدى^(٩٩).

ولا بد أن ننبه هنا على حقيقة هامة، تعد قاعدة أساسية في تصور الإسلام لطبيعة العلاقة بين الله الخالق والكون المخلوق، وهى قاعدة «الخلق المباشر» التى تعنى أن الله تعالى أنشأ هذا الكون من العدم بمقتضى إرادته المطلقة التى تصدر عنها المخلوقات جميعا، فلا وساطة بعد الخلق والمخلوق من قوة أو مادة، ولا حاجة بالخالق سبحانه إلى زمان يستغرقه خلقه للكائنات، وما هو إلا أن تتوجه الإرادة الإلهية حتى يوجد المراد، كما قال سبحانه :

(بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(١٠٠)

وقال تعالى :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(١٠١)

قال تعالى : (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)^(١٠٢)

(٩٦) انظر تفسير الطبري ١٧٨/٢٦ - ١٧٩ مطبعة البابى الحلبي - الطبعة الثانية .

(٩٧) أنوار التنزيل ٤٦٠/٢ طبعة القسطنطينية ١٢٨٥هـ .

(٩٨) مجمع البيان في تفسير القرآن ١١٦/٢٦ .

(٩٩) فتح القدير ٨٠/٥ .

(١٠٠) البقرة : ١١٧ .

(١٠٢) القمر : ٥٠ .

(١٠١) يس : ٨٢ .

إن هذه الآيات الكريمة تعبر عن تصور الإسلام التجريدى الكامل لله سبحانه وتعالى، ولطبيعة العلاقة بين الخالق وخلقته، ولطبيعة صدور الخلق عن الخالق، وهو أوضح وأرفع تصور عن هذه الحقائق جميعا. لقد صدر الكون عن خالقه - جل جلاله - عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة «كن فيكون» فمجرد توجه الإرادة الإلهية إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن على الصورة المقدرة له بدون وسيط من قوة أو مادة .

أما كيفية اتصال هذه الإرادة - التى لا نعرف كنهها - بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذى لم يكشف للإدراك البشرى عنه؛ لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه باعتبار أنه لا يلزمها فى وظيفتها التى خلقت لها، وهى خلافة الأرض وعمارتها، وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التى تفيد فى مهمته وفى ترقية حياته، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التى لا علاقة لها بخلافته الكبرى فى الأرض .

ولقد ضربت الفلسفات فى تيه، لا منارة فيه، وهى تحاول كشف هذه الأسرار اعتمادا على فروض نابعة من الإدراك البشرى المحدود الذى لم يهيا لارتداد هذا المجال، فجاءت الفروض سقيمة، فى أرفع مستوياتها، إلى حد يدعو للتساؤل: كيف يصدر هذا عن فيلسوف ؟ وما ذلك إلا لأن أصحاب هذا الفلسفات حاولوا أن يتجاوزوا بالإدراك البشرى نطاقه المقدور له، فلم يصلوا إلى شئ يطمئن إليه العقل، أو يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامى ويعيش فى ظله (١٠٣) .

ونضرب لذلك مثلا محاولة كل من أفلاطون وأفلوطين تفسير حدوث الكون استنادا إلى فكرة الوسائط بين الإله والخلق، فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة الأولية أو الهوى، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من الهوى، وبين ذلك كائنات على درجات تعلق بمقدار ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهوى. وهذه الأرباب الوسطى هى التى تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر والهوى العاجز. وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ليعمل بها ما فى العالم من شر ونقص وألم، لأن العقل المطلق كمال مطلق لا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة (١٠٤) .

(١٠٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن م ١٠٦/١ .

(١٠٤) عباس محمود العقاد: كتاب «الله»، ص ١٣٧ وانظر سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ص ١٩٣ - ١٩٤ .

أما أفلوطين فقد غلا، فيما يراه تنزيها لإلهه الأحد، فنفى عنه كل الصفات، حتى زعم أن من كمال هذا الإله أنه لا يشعر بذاته، لأنه يتنزه عن ذلك الشعور الذى يتنافى مع الوحدة المطلقة. ومن البدهى أن هذا المذهب يقتضى وجود وسائط متعددة تكون همزة وصل بين هذا الإله الأحد المطلق الصفاء، وهذه الكثرة المتمثلة فيما يحتوى عليه عالم الحس والمادة. وهكذا لزم أفلوطين أن يقول : إن الواحد فاض عنه مبدأ أول هو العقل، والعقل خلق الروح أو فاضت عنه الروح، والروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذى ينحدر طورا دون طور إلى عالم الهوى أو عالم المادة والفساد^(١٠٥).

وتعرف هذه المقالة الفلسفية بنظرية «الفيض»، وهى نظرية غريبة عن التصور الإسلامى تماما؛ لأن فكرة الفيض - كما يراها أفلوطين - ذات طابع جبرى واضح، ومن ثم فإنها تؤدى إلى القول بقدم العالم، وتنفى عن الله صفة الإرادة والاختيار فى الخلق..

وقد كان لهذه النظرية - مع الأسف - صدى واضح فى بعض جوانب الفلسفة الإسلامية وخاصة عند الفارابى وابن سينا، وكان هذا أحد الأسباب التى أغرت أبا حامد الغزالى بمهاجمة الفلاسفة هجوما عنيفا فى كتابه «تهافت الفلاسفة»^(١٠٦).

ومن المؤكد أن السبب فى هذا التعقيد والتخليط الذى تورط فيه فلاسفة اليونان ومن نحا نحوهم - فى الحديث عن نشأة الكون - هو أنهم ارتقوا مرتقى صعبا، وضرىوا فى تيه الغيبيات بلا دليل، فجاءت أفكارهم سقيمة متهافنة، ونظرياتهم ركيكة وإهنة، وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشرى وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقه وتكوينه. ولا غرابة فى ذلك؛ فإن الإنسان محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان، ومن ناحية العلم والتجربة والإدراك، محكوم بضعفه وميوله ورغباته؛ ولذلك فإنه حينما يفكر فى إنشاء تصور اعتقادى من ذات نفسه يجىء تفكيره محكما بهذه السمة التى تحكم كينونته كلها، ويعمى عليه وجه الحق فى كل الأمور التى تتجاوز دائرة كينونته ومجال إدراكه^(١٠٧).

(١٠٥) عباس العقاد: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(١٠٦) انظر الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ص ٥٩ - ٦٢، ٨٧ - ٩١.

(١٠٧) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ص ١٠٧، ١٠٨.

أما الشبهة التي يثيرها الماديون ضد فكرة الخلق ابتداء من العدم، والقائلة بأن العقول لا يمكن أن تتصور حصول شيء من لا شيء، أى خلق المادة من العدم، فالجواب عنها سهل يسير، وهو أن يقال لهم: «إن عدم تصور حقيقة الأمر لا يكون دليلاً على عدمه في نفسه، وما منشأ هذا العجز عن تصور إيجاد شيء من لا شيء إلا «قياس التمثيل»؛ لأنكم لم تشاهدوا شيئاً خلق من لا شيء، ولكن عدم مشاهدة حدوث شيء من لا شيء لا يلزم منه أن ذلك مجال. وقياس التمثيل ليس قطعي الدلالة، بل كثيراً ما يقع في الغلط ولا تقاس قدرة الله تعالى على قدرة البشر، لأن الفرق بين القدرتين عظيم، ونحن نفر بالعجز عن إدراك كيفية خلقه سبحانه للعالم من لا شيء، ولكن العجز عن تصور حقيقة الشيء الذي قام الدليل العقلي على وجوده لا ينافي الاعتقاد بوجوده (١٠٨)» .

إن عقولنا خلقت عاجزة عن تصور كثير من الأشياء، ولكنها تستطيع أن تحكم بوجودها من طريق البرهان العقلي القاطع، فالتصور غير التعقل، فقد يستطيع الإنسان تعقل شيء ولا يستطيع تصوره، لأن التعقل يعتمد على بديهيات أولية يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها، واستنباط بعضها من بعض، وبناء بعضها على بعض، فيصل إلى حكم قاطع قد لا يستطيع تصوره .

والعلم الحديث يقر هذه الحقيقة عن الفرق بين إمكان تصور الشيء وإمكان تعقله، فلا يبالي بعجز العقل عن التصور، ويعتمد على التعقل وحده؛ لأن الحقائق العلمية أصبحت، في مجالاتها، وكمياتها، وأعدادها، فوق التصور .

ولنضرب لذلك مثلاً الأعداد في الأبحاث الذرية الحديثة : إن هذه الأعداد قد تصل إلى مرتبة هائلة يعجز العقل - كل العجز - عن تصورها، ذلك أن العلماء يقررون - بطريقة حسابية ذرية - أن سرعة ذبذبات الصوت قد تصل إلى نصف مليون ذبذبة في الثانية، وهذا ثابت عندهم ثبوتاً عقلياً علمياً قاطعاً لا ريب فيه. ولكن أتراه يستطيعون تصور حصول هذا العدد الهائل من الذبذبات في ثانية واحدة ؟ إن الإنسان لا يستطيع - مهما أجهد خياله - أن يتصور حصول ألف ذبذبة في الثانية، فضلاً عن مائة ألف، فضلاً عن نصف مليون ذبذبة في

(١٠٨) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ... ص ٢٠٦ .

الثانية . ولكن هذا الشيء الذى يعجز الإنسان والعلماء عن تصوره هو أمر واقع لا ريب فيه، فبأى شئ عرفوه ؟ إنهم عرفوه من طريق التعقل بالحساب. وهكذا يتضح أن التصور غير التعقل، وأن العبرة لقدرة العقل على التعقل ولا عبرة لعجزه عن التصور. وهذا معنى قول العلماء إن الخلق من العدم ممكن تعقله، ولو كان العقل يكل أو يعجز عن تصوره^(١٠٩) .

يبقى أن نقول أخيرا: إنه إذا كان التصور القرآنى للكون يقوم على أساس أنه من خلق الله تعالى وإبداعه، وأن الله تعالى أخرجه من العدم بعد أن لم يكن موجودا - فإن مقتضى ذلك هو الفصل التام بين حقيقة الخالق وحقيقة المخلوق فى الماهية والذات والصفات، بحيث لا تقوم شبهة أو غش حول هذا الفصل الحاسم الجازم، فالله تعالى ليس قوة كامنة فى الكون كما عبر بعض الفلاسفة، بل هو وجود أزل متميز عن الكون .. هو الأول بلا أول، وهو - سبحانه - ليس الكون ذاته؛ لأنه خالق الكون فلا بد أن يكون مغايرا لما خلق، وهذه نتيجة بديهية؛ لأن القول بأن الخالق والمخلوق شئ واحد يؤلف تناقضا عقليا - كما يقول ليبنيز وغيره - لاستحالة أن يكون المعلول هو العلة نفسها^(١١٠)، »

(أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)^(١١١)

ومن هنا تنتفى من التصور الإسلامى للكون فكرة «وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح، أى بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة، أو أن الوجود إشعاع ذاتى للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية الموجد، أو على أى نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس . والوجود وحدة فى نظر المسلم على معنى آخر، هو وحدة صدورهِ عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذى يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه وخالقه فى عبادة وخشوع^(١١٢) .

وبهذا التصور يفترق الإسلام افتراقا أساسيا عن اليهودية المحرفة، فإن التلبس بين

(١٠٩) المرجع السابق، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(١١٠) السابق، ص ٢٨٥ .

(١١١) النحل : ١٧ .

(١١٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن م ١٠٦/١ .

الكون والإله واضح كل الوضوح في العهد القديم - وبخاصة الأسفار الأولى منه - حيث يتخذ الإله من عناصر الكون مكانا لسكنه أو تنقله، فهو يسكن الجبال والضباب والسحاب وغيرها من العناصر والظواهر الطبيعية، فالعهد القديم يزعم أن «جبل صهيون» مسكن للإله، فنقرأ مثلا: «جبل صهيون هذا الذى سكنت فيه»، وأيضا «جبل باشان» مسكن للإله حتى إنه نسب إلى الرب، وصارت الجبال الأخرى تغبطه لهذه المكانة الرفيعة «جبل الله جبل باشان .. لماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدن الجبل الذى اشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد» (١١٣) .

وقد سجل غوستاف لوبون هذه الظاهرة ذات النزعة الحلولية التجسيدية لدى اليهود بقوله: «كان يهوه فى أول الأمر إله الجو فقط، وكانت الصاعقة والرياح والسحب تعد جيادا له ... وفى جميع أسفار التوراة ، حتى أحدثها، نرى العوارض الجوية ملازمة لذلك الإله مخبرة به على الدوام، وقد أنزله أيليا على الهيكل فى صورة حمامة، ولقبه على جبل «الكامل» فى نسيم خفيف، وسمع أيوب صوته من عاصفة» (١١٤) .

ويذكرنا هذا التصور اليهودى للملابسة الإله لعناصر الكون - الى حد ما - بتصور العامة من قدماء المصريين، فإنهم كانوا يعرفون الإله الأحده الغيبى الأزلى، غير أن تلك العقيدة كانت مشوبة عندهم بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره فى بعض الكائنات الممتازة من إنسان أو حيوان أو جماد، فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير فى الملوك، وقوة الإخصاب النباتى فى النيل، وقوة الإخصاب الحيوانى فى عجل أبيس مستمدة من السماء بتلقيح شعاع الشمس مثلا (١١٥) .

ويتبين مما تقدم أن تصور الإسلام لطبيعة العلاقة بين الكون وخالقه هو أرفع وأسمى تصور يستطيع أن يتقبله عقل، كما أنه أكمل تصور فى الدين .

(١١٣) مزامير (مزمور ٦٨ : ١٥ - ١٦) .

(١١٤) د. غوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ص ٦٨ .

(١١٥) د. محمد عبده الله دراز : كتاب الدين ص ٣، ٢ .

دلالة الكون على خالقه

الكون هو كتاب الله المفتوح الذى يقود التأمل فيه إلى الإيمان بوجود الخالق تعالى والإقرار بوحديته وقدرته وحكمته، وذلك بما يحتوى عليه من الآيات الباهرة والأمارات الواضحة التى تشهد بوجود الصانع الحكيم، وإبداعه لهذا الكون العظيم .

ومما يلاحظ بوضوح فى منهج التربية القرآنى كثرة توجيه الإدراك البشرى إلى ما فى الآفاق، وما فى الأنفس، من أمارات وآيات، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعة الله فى الأنفس، وفى الآفاق، ذلك أن هذه المصاحبة تنبه الإدراك البشرى إلى معرفة الصانع من صنعته، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعته، وحبه بإدراك عظمة أنعمه، كما أنها فى الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنسانى بخصائص تلك الصنعة العجيبة من دقة وتناسق وانتظام، لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت^(١١٦) .

والقرآن الكريم يتخذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب، تبحث فيها عن آيات الله، وترى دلائل وجوده ووحدانيته، ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان. وقد حث الكريم على التأمل والتفكير فى هذا الكتاب المفتوح، وأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، ويعلمون أن هذا الكون بما يحتوى عليه من مخلوقات إنما هو آية على وجود إله واحد قادر حكيم، ولذلك قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

(١١٦) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(١١٧)

يقول الزمخشري في تفسير هاتين الآيتين: إن الآيات الماثلة في خلق السماوات والأرض إنما تنكشف لهؤلاء الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر، ذلك أن النظر المعبر في خلق السماوات والأرض، واختراع هذه الأجرام العظام، وإبداع صنعها، وما دبر فيها، يدل دلالة قاطعة على وجود الصانع وعظيم شأنه وكبرياء سلطانه. (١١٨).

والناظر في الآيات الكونية - كما وردت في القرآن الكريم - يجد أن دلالاتها على وجود الخالق تعالى كثيرة ومتنوعة، بحيث يتعذر علينا استعراض هذه الدلالات جميعا في هذا البحث المختصر، لذلك سنكتفى هنا بالحديث عن أظهر هذه الدلالات تجنباً للإطالة.

١ - دلالة الخلق أو الحدوث : ومؤدى هذه الدلالة أن النظر في الكون وما يحتوى عليه من موجودات متغيرة ومخلوقات متبدلة يؤدى إلى التسليم بحدوث هذا العالم، والإيمان بوجود خالق له، إذ أنه من المستحيل عقلا أن تكون هذه المخلوقات قد وجدت من تلقاء نفسها، وهذا هو ما يقتضيه مبدأ السببية الذى يقرر أن كل موجود لا بد له من موجد، وكل صنعة لا بد لها من صانع، وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها أو المكابرة فيها.

وقد أشار القرآن إلى هذه الدلالة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)^(١١٩)

(١١٧) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(١١٨) الزمخشري : الكشاف ١/ ٣٦٨ .

(١١٩) الأنعام : ١ .

وقوله تعالى :

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى
النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)^(١٢٠)

وقوله تعالى :

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)^(١٢١)

وقوله تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْمَخْلُوقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ
لَا يُوقِنُونَ)^(١٢٢)

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أنها تبرهن على وجود الخالق - سبحانه - وثبتت
ألوهيته وربوبيته المتجلية في خلق الآفاق، وفي خلق الأنفس على السواء، والبادية في خلق
السموات والأرض، وخلق الأجرام الهائلة السابحة في الفضاء، وفي خلق الظواهر الناشئة عن
خلق السموات والأرض، الليل والنهار، والظلمات والنور، وفي خلق الإنسان من العدم، وفي
إنشاء تلك المخلوقات العجيبة التي تدب حول الإنسان على الأرض، على اختلاف أنواعها
وأجناسها وأشكالها وأحجامها؛ فإن وجود هذه الأشياء بصفاتها المحددة، وما يعتمدها من
تغيرات وتبدلات وتحولات دليل واضح على حدوثها، وعلى وجود الخالق المحدث لها .

(١٢٠) الزمر: آية ٥ .

(١٢١) الجاثية: ٤ .

(١٢٢) الطور: ٣٥، ٣٦ .

ومن الواضح أن القرآن - في عرضه لدليل الخلق ممثلاً في الآفاق وفي الأنفس على النحو السالف - إنما يخاطب الإدراك البشري خطاباً موحياً موقظاً للفطرة ، حيث يواجهها بحركة الخلق والإنشاء ، وحركة التدبير والهيمنة، وحركات التغير والتبدل التي تطرأ على الكائنات ، في صورة التقرير المنطقي، لا في صورة الجدل الفلسفي، وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله تعالى، ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه (١٢٣) .

ولا شك في أن دلالة الخلق - كما عرضها القرآن - إنما تواجه لوثة الإلحاد مواجهة قوية صارمة، لا يجد الملحدون إزاءها إلا الماحلة والمغالطة والالتواء، ذلك أن وجود هذا الكون بهذا النظام الخاص، وبما يحدث فيه كل لحظة من تغيرات يستلزم - بنطق الفطرة السليمة والضرورة العقلية - أن يكون محدثاً مخلوقاً ، وأن يكون وراءه خالق مدبر؛ لأن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها إلا بتصور إله ينشئ ويخلق ويوجد هذا الكون (١٢٤) .

ولله ما أروع دلالة الخلق والإنشاء تطالعنا في قول الحق

سبحانه وتعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ
لَا يُوقِنُونَ)

إن هذا النص القرآني - بما طرحه من أسئلة مفحمة - يفرض الإقرار بوجود الخالق فرضاً على عقول الملاحدة مهما راوغوا وغالطوا. إنه يتساءل عن علة هذا العالم وسببه، ويعرض الفروض المستحيلة التي يذكرها الجاحدون الملحدون حين يقولون: إن العالم حدث من غير علة، أو إنه حدث من نفسه، ثم يرد عليها بطريقة تنبه العقول إلى استحالة تلك الفروض استحالة بديهية: فهل خلق العالم من غير شيء وحدث من غير علة؟ وهل خلقوا هم كذلك من غير

(١٢٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣١ .

(١٢٤) المرجع السابق، ص ١٠٣٤ .

شيء؟ إن هذا مستحيل، لأن وجودهم ووجود العالم على هذه الكيفية البديعة والصنعة العجيبة، بدون خالق لهم وللعالم، أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء، ولا يحتاج إلى جدل أى جدل. أما أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم فأمر لم يدعوه، لأن عاقلا لا يستطيع أن يدعى ذلك. وإذا بطل هذان الفرضان، بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقرها القرآن، وهي أنهم جميعا مخلوقون لله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، وهو منطق واضح دامغ .

ثم يواجههم القرآن بوجود السماوات والأرض حيالهم، فهل هم الذين خلقوها ؟ حيث إنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال، كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم «أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون» وإنهم لا يستطيعون أن يدعوا أنهم هم الذين خلقوها، وهي قائمة حيالهم سؤالا حيا ملحا، يتطلب الجواب عن خلقها وعن مصدر هذا الخلق، فلزمتهم الحجة إذن على وجود الخالق سبحانه، ومن ثم يكون إنكارهم للإله الخالق رفضا لمنطق العقل وخطبا في ظلمات الشك . (١٢٥)

وهكذا يتناول القرآن الذي نزل على لسان الأُمى - صلى الله عليه وسلم - جميع الحجج البالغة والبراهين الدامغة الدالة على وجود الله تعالى، فيقررها بأبلغ عبارة وأوجز إشارة تقريرا معجزا، يبرز فيه من تلك الحجج والبراهين ما يصلح لإدراك جاهل، ويخفى منها للأجيال ما لا يستطيع الغوص عليه إلا العالمون (١٢٦) .

وإذا كان القول بوجود الإله ضروريا - بمقتضى منطق الفطرة والبداية العقلية - لتعليل مجرد وجود الكون، فكيف إذا كان الحال أن الكون لم يوجد مجرد وجود، ولكنه وجد مخلوقا بنواميس نابتة محسوب فيها كل شيء بمقادير مقننة ؟ وكيف إذا كان الإنسان - وهو جزء من الكون - لم يخلق مجرد خلق، بل خلق على هذه الصنعة العجيبة والكيفية البديعة ؟ (١٢٧) .

ونختم حديثنا عن دلالة الخلق بقول عالم الطبيعة الأمريكي «جورج إيرل ديفيس»: «لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بصفات الخالق، وفي هذه الحالة

(١٢٥) انظر فتح القدير ١٠١/٥ وفي ظلال القرآن م ٣٣٩٩/٦ - ٣٤٠٠ .

(١٢٦) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(١٢٧) في ظلال القرآن م ١٠٣٤/٢ .

سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننتهى إلى التسليم بوجود الإله، ولكن إلهنا هذا سيكون عجيباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد ! إننى أفضّل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومدبره، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات» (١٢٨).

٢ - دلالة نشأة الحياة : ونعنى بها انبثاق الحياة فى المادة الصماء، وتلبسها بالكائنات المؤلفة من درات وعناصر لا وجود للحياة فيها أصلاً، فإن نشأة الحياة بهذه الصورة لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر، يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه، وتسمح بكفالة الحياة أيضاً، فضلاً عن إنشائه للحياة ذاتها وإضافتها على جميع الكائنات التى قدر لها الحياة. ونجد هذه الدلالة على سبيل المثال فى الآيات التالية :

أولاً : قوله تعالى :

(* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)^(١٢٩)

إن هذه الآية تقفنا أمام الخارقة المعجزة التى تقع فى كل لحظة من الليل والنهار، خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموت الهامد . هذه الحياة كيف انبثقت فى المادة الميتة، وكيف سارت وتسير سيرتها هذه المحوطة بالآف الموافقات والموازنات، والتقديرات ؟ إنها المعجزة التى لا يدرك سرها أحد، فضلاً عن أن يقدر على صنعها أحد، معجزة الحياة نشأة وحركة. وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة، والحياة الكامنة فى الحبة والنواة، والنامية فى النبتة والشجرة، سر مكنون ومعجزة خارقة، لا ندرك كيف انبثقت ولا من أين جاءت إلا أنها جاءت من عند الله، وانبثقت بقدر من الله تعالى (١٣٠).

(١٢٨) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١٢٩) الأنعام : ٩٥ .

(١٣٠) فى ظلال القرآن م ١١٥٢/٢ ، ١١٥٣ .

ثانيا : قول الله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)
(١٣١)

إن المخاطبين بهذه الآية ليرون كيف يبدئ الله الخلق، ونحن جميعا نرى ذلك رأى العين، نراه فى النبتة النامية، وفى البيضة والجنين، وفى كل ما لم يكن ثم كان مما لا تملك قدرة البشر جميعا أن يخلقوه أو يزعموا أنهم خالقوه. إن سر الحياة كان - ولا يزال - معجزا فى معرفة نشأته وكيف جاء، ولا تفسير له حقيقة إلا أنه من صنع الله تعالى الذى يبدأ الخلق فى كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم، وهم يرون ولا يملكون الإنكار (١٣٢).

ثالثا : قوله تعالى :

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
(١٣٣)

وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)

هذه الآية تلفت الأنظار إلى حال الأرض قبل أن يجودها الماء وبعد أن يجودها، فهى قبل أن ينزل عليها الماء تكون فى حالة همود وسكون، فإذا أنزل عليها الماء وجدناها تتحرك حركة اهتزاز وهى تشرب الماء، وتتفتح فتربو وتزيد، ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج . وهكذا تنبعث الحياة من الأرض بعد الهمود وتتجلى قدرة الله وهى تنشى هذا السر العجيب الذى يستعلن أمام الناس فىأخذ بمجامع قلوبهم، وهل هناك أبهج للنفس من رؤية الحياة وهى تتفتح بعد الكمون، وتتفض بعد الهمود (١٣٤)!

(١٣١) العنكبوت : ١٩ .

(١٣٢) فى ظلال القرآن م ٢٧٢٩/٥ .

(١٣٣) الحج : آية ٥ .

(١٣٤) فى ظلال القرآن م ٢٤١١/٤

رابعاً: قول الله تعالى (يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ

(١٣٥)
فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ... (الآية) .

إن هذه الآية أيضاً من أوضح البراهين على وجود الخالق منشئ الحياة في الإنسان. إن الإنسان ابن الأرض، من ترابها نشأ ومن ترابها عاش، ولكن أين التراب وأين الإنسان؟ أين تلك الذرات الأولية الساكنة الميتة من ذلك الإنسان الموار بالحياة والحركة. إن المسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة الميتة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية مسافة هائلة، تضمر في طياتها سر الحياة الأعظم الذي لا يمكن تفسيره إلا بالإيمان بوجود الخالق العليم، ثم يبقى بعد ذلك سر التحولات الضخمة التي تمر بها النطفة إلى أن تصبح إنساناً له صفاته الجسدية، والعصبية والعقلية والنفسية، التي لا يشاركه فيها أى فرد آخر من أفراد جنسه في جميع الأزمان (١٣٦) .

لقد حاول بعض الفلاسفة الماديين تفسير نشأة الحياة الأولى - بدون اللجوء إلى الاعتراف بوجود الله - على أساس أنها انبعثت من المادة الميتة، ومن هؤلاء العالم الألماني البيولوجي «ارنست هيكل» الذي يرى أن الكون مؤلف من المادة، والمادة مؤلفة من الذرات، ومن هذا المادة ظهر كل ما في الكون من أحياء وغير أحياء، وحركة العالم هى حركة تطور دائم، يبتدىء من أبسط الذرات، وينتهى إلى أرقى الكائنات، فأبسط أنواع الحيوان نشأت من مادة غير حية بطريق «التولد الذاتى» .

هذا هو ما يفترضه «هيكل» افتراضاً، ولكنه يقف هو وغيره من الماديين عاجزين عن معرفة سر هذه النشأة للحياة الأولى من الجهاد أو من المادة الميتة حتى إن «بخنر» ، وهو من أكثر الماديين غلواً، وقف أمام مشكلة خلق الحياة من الجهاد حائراً، حيث يقول بإنصاف العلماء وتجردهم: «إن البت في أمر التولد الذاتى للكرية الأولى التى نشأ عنها الأصل الأول أمر غير متيسر، لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولدا ذاتياً غير معروفة . والكرية ذاتها،

(١٣٥) الحج: آية ٥ .

(١٣٦) فى ظلال القرآن م٤/٢٤٠٩ - ٢٤١٠ .

على بساطتها، ذات بناء وتركيب يتمتع معه صدورها من الجهاد مباشرة، بل إن ظهورها من الجهاد ليعد، في نظر العلم، معجزة ليست أقل بعدا عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجهاد رأسا» (١٣٧) .

وهناك فريق من الماديين افترض أن الحياة قد جاءت إلى الأرض من بعض الكواكب في شكل جرثومة، انسلت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زمانا في الفضاء استقرت على الأرض، وصارت منبعا لكل حياة. ونحن لا نحاكم هؤلاء الخاطئين في الظلام إلى قرآتنا، ولا إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن، إنما نكلهم إلى أندادهم من العلماء الذين يواجهون هذه القضية بشيء من الجد والتعقل .

يقول «أ. كريس موريسون» الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك: إن افتراض نشأة الحياة على الأرض، نتيجة جرثومة هبطت إليها من بعض الكواكب في ذلك الماضي السحيق، افتراض غير مسلم، حيث إنه كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، ولو سلمنا جدلا بقدرتها على البقاء - رغم ذلك - فإن الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان كفيلا بقتلها. هذا فضلا عن أنه من المتفق عليه عموما أنه لا البيئة وحدها، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة، ولا أى اتفاق في الظروف الطبيعية والكأوية - قد تحقق المصادفة - يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود.. وهكذا يمضى الأستاذ «موريسون» في سوق الأدلة المبطلّة لهذا الافتراض السالف، حتى ينتهى إلى القول بأنه هو نفسه لا يعرف كيف جاءت الحياة إلى هذه الأرض، ولكنه يؤمن بأنها جاءت تعبيراً عن القوة الإلهية، وبأنها في الوقت نفسه ليست مادية (١٣٨).

وفي مقال نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» نجد الأستاذ «فرانك ألن» يتصدى لدحض الافتراض المادى القائل بأن الحياة نشأت عن طريق المصادفة، ويثبت على عكس ذلك أنها نشأت عن حكمة بالغة وتقدير سابق مستدلا على هذا بأن قانون المصادفة نفسه - وفقا للحسابات العلمية التى أجراها العلماء - يمنع أن

(١٣٧) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
(١٣٨) أ. كريس موريسون: العلم يدعو للإيمان، ص ٩٦ - ١٠٤ .

تتألف المصادفات لكى تبنى جزئيا بروتينيا واحدا من الجزئيات المتكررة التى تتكون منها الخلايا الحية، هذا فضلا عن أن البروتينات نفسها ليست إلا مواد كياوية عديمة الحياة، فكيف يدب فيها ذلك السر العجيب إلا أن يكون منشئه هو الله وحده الذى علم ببالغ حكمته أن مثل هذا الجزئى البروتينى يصلح لأن يكون مستقرا للحياة، فبناه وصوره، وأغلق عليه سر الحياة (١٣٩).

وقد عبر الأستاذ «ايدوين كونكلين» عن هذه الإشكالات والمحالات العقلية، التى أثارتها خرافة القول بالصدفة فى نشأة الحياة ، بقوله: «إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة «حادث اتفاقي» شبيه فى مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدى يقع فى مطبعة» (١٤٠).

وهكذا يتجلى لنا - فى ضوء المقررات العلمية - أن ظهور الحياة فى هذه الأرض وحدها - ودع عنك ما فى السماوات من حيوات أخرى لا ندركها - آية دالة على وجود الخالق جل جلاله، إذ أنها سر خفى لم ينفذ إلى طبيعته أحد فضلا عن التطلع إلى إنشائه، وكل المحاولات التى بذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته باءت بالفشل، وأسدت دونها الأستار، وانحصرت البحوث كلها فى تطور الأحياء - بعد وجود الحياة - وتنوعها وظوائفها. وفى هذا الحيز الضيق المنظور تباينت النظريات والآراء، فأما ما وراء الستر فبقى سرا مغيبا لا تمتد إليه عين، ولا يتناول إليه إدراك، إنه من خلق الله، ومن أمر الله الذى لا يدركه سواه (١٤١).

٣ - دلالة النظام والإتيقان: ونعنى بذلك ما يشاهد من نظام هذا العالم وترتيبه، وبديع إتيقانه وإحكامه، ذلك أن الذى يتأمل فى هذا الصنع المحكم والخلق المتقن، والنظام العجيب والتنسيق البديع السارى فى هذا الكون - بجملته وتفصيله - يجد فى ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على وجود خالق هذا الكون ومبدعه، واتصافه بكل صفات الكمال والجلال، فإنه ليس من المعقول أن يكون وجود مثل هذه الصنعة المحكمة، والنظام الدقيق، بطريق الاتفاق أو الصدفة؛ لأن هذا مما تكره العقول السليمة .

(١٣٩) فرانك ألن: الله يتجلى فى عصر العلم، ص ٥ - ١٠

(١٤٠) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى، ص ٩٩ .

(١٤١) فى ظلال القرآن ٣١٥٨/٥ .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتضمن هذه الدلالة، وتستجيش في الفطرة السليمة إحساساً قوياً بالروعة البادية في صفحات هذا الكون، وبالاتقان الباهر في تصميم هذا البناء، ورغبة صادقة في التوجه إلى خالق هذا الكون بالعبادة والقنوت، مع الحب له والخشية له في آن واحد .

ومن هذه الآيات مثلاً قوله تعالى :

(۱۴۲) وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)

وقوله :

(۱۴۳) صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

وقوله :

(۱۴۴) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

وقوله :

(۱۴۵) مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ)

وقوله :

(۱۴۶) وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)

وقوله :

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي

(۱۴۲) الفرقان : ۲ .

(۱۴۳) النمل : ۸۸ .

(۱۴۴) السجدة : ۷ .

(۱۴۵) الملك : ۳ .

(۱۴۶) غافر : ۶۴ .

خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٥٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (١٤٧)

إن القارئ لهذه الآيات الكريمة يجد أنها توجه الأنظار إلى تأمل ما في الكون من صنع محكم ، وخلق متقن، ونظام بديع، يتجلى في كل شئ: يتجلى في السماوات بأجرامها الضخمة وأفلاكها الهائلة، ودورة هذه الأجرام في أفلاكها في دقة وإطراد وتناسق، ويتجلى في هذه الأرض وموقعها الكوني الخاص الذي يجعلها صالحة لنشوء الحياة فوقها، ويتجلى في تصريف الرياح وفق النظام الدقيق المقصود في تصميم هذا الكون العجيب، ويتجلى في خلق الإنسان بهذا التكوين العجيب، وهذه الخصائص الفريدة وتلك اللطائف الدقيقة، ويتجلى في هذه الكائنات الحسية التي تدب على الأرض أنواعا وأجناسا وأشكالا وأحجاما لا يعلم عددها إلا الله تعالى، وأصغرها كأكبرها معجز في خلقه وتصريفه، وتناسب حيواته على هذه الأرض، ويتجلى في أنواع الطيور وأنواع النبات على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها، فالريشة الصغيرة في جناح الطائر - فضلا عن الطائر نفسه - آية في مادتها وتنسيقها ووظائفها، والورقة الصغيرة في الشجرة الضخمة، أو النبتة الهزيلة، آية في شكلها وحجمها، وفي لونها ولمسها، وفي وظيفتها وتركيبها. وحيثما مد الإنسان بصره في الأرض أو في السماء تراحمت الآيات وتراكبت، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره، وهى آيات عجيبة على وجود الخلاق العليم، لا تنفى بالحديث عن بعضها المجلدات الضخمة (١٤٨).

ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يفصل القول في دقائق ما يحتوى عليه الكون من دقة الصنع وإتقان الخلق وبديع النظام، ذلك أنه ليس كتابا في الطبيعة أو الكيمياء أو الطب أو التشريع أو علم الأجنة، وإنما هو كتاب هداية وتشريع في المقام الأول. ومن أجل ذلك اكتفى بالإلماع إلى ما تنطوى عليه الأكوان والأنفس من عجائب الخلق، وبدائع الصنع، ودقائق التقدير، وترك المجال فسيحا أمام العقل البشرى لينفذ إلى بواطن الأمور، ويكشف المخبوء، ويقف على حقائق الأسرار وروائع الآثار المبهوثة في الآفاق وفي الأنفس مصداقا لقوله تعالى :

(١٤٧) الانفطار: ٦ - ٨ .

(١٤٨) انظر في ظلال القرآن ٣٢٢٢/٥ قصة الإيمان، ص ٣٧٠، والعلم يدعو للإيمان، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ
 أَنَّهُ الْحَقُّ)^{١٤٩}

والواقع أن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه يدعو إلى الدهشة حقاً، وينفي فكرة المصادفة نفيًا باتاً، وينطق بوجود الصانع العليم، وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب الإتيان في صنع الكون والتناسق العجيب في قوانينه ونسبه ومفرداته، اتسع تصور البشر لمعاني النصوص القرآنية المذكورة آنفاً. وسنتكلم عن هذه المسألة بشيء من التفصيل عند الحديث عن سنن الكون ونواميسه .

وهكذا يتبين لنا أن إتيان صنعة الله تعالى يتجلى في كل شيء في هذا الوجود، فلا فلتة ولا مصادفة، ولا ثغرة ولا نقص، ولا تفاوت ولا نسيان. ويتدبر المتدبر كل آيات الصنعة المعجزة فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب في الأرض وفي السماء، في الصغير والكبير، والجليل والحقير، فكل شيء بتقدير وتدبير وإحكام ونظام يدير الرؤوس التي تتابعه وتتملاه^(١٥٠). فهل يعقل بعد هذا كله أن يكون هذا الإحسان والإتيان، والتقويم والاتزان، والتناسب والنظام أثراً من آثار المصادفة العمياء ؟ سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون، ونعوذ بالله من الضلال المبين .

٤ - دلالة العناية أو الغائية : ومؤدى هذه الدلالة أن من ينعم النظر في هذا الكون يجد أن كل مخلوق من مخلوقاته قد خلق على هيئة خاصة، بها يتحقق وجوده على أفضل وجه ممكن، كما يجد أن هذه المخلوقات لم توجد عبثاً، وإنما خلقت لتحقيق أهداف جليلة، ومقاصد عظيمة، تعود بالخير والنفع على الإنسان في حياته، حتى ليبدو الإنسان وكأنه محور الكون كله، وكأن كل شيء في هذا الوجود قد خلق من أجله، وهذا يدل على أن الكون لم يوجد من تلقاء نفسه أو بطريق المصادفة، وإنما هو من صنع خالق عليم بخلقه مريد لفعله^(١٥١) .

(١٤٩) فصلت : ٥٣ .

(١٥٠) سيد قطب : في ظلال القرآن م/٥/٢٦٦٩ .

(١٥١) انظر هذا الدليل بالتفصيل في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء - العدد الأول ١٤٠١/١٤٠٢ (١٥١) مقال للباحث بعنوان : ابن قيم الجوزية : سيرته ، منهجه - أراؤه في الإلهيات) .

والآيات القرآنية التي تتضمن دلالة العناية كثيرة، لا يتسع المقام هنا للحديث عنها بالتفصيل، وحسبنا أن نشير إليها على وجه الإجمال، على أن نعود إليها بشئ من التفصيل عند حديثنا عن تسخير الكون للإنسان، فهناك آيات تتحدث عن مظاهر العناية في خلق الإنسان^(١٥٢)، وآيات عن الغاية من خلق الشمس والقمر والنجوم^(١٥٣)، وآيات عن الحكمة من خلق الليل والنهار^(١٥٤)، وآيات عن العناية الملحوظة في خلق الأرض للإنسان^(١٥٥)، وآيات عن الغاية من خلق الجبال^(١٥٦)، وآيات عن منافع البحر^(١٥٧)، وآيات عن حكمة إرسال الرياح^(١٥٨)، وآيات عن المنافع المقصودة من إنزال الماء من السماء^(١٥٩) ... إلى غير ذلك من وجوه الحكمة ودلالات العناية الملحوظة في هذا الكون جملة وتفصيلاً، مما يشهد بأن هذه العناية لا يمكن أن تتأتى بطريق المصادفة، بل هي عناية مقصودة ومرادة من قبل الصانع الحكيم والخالق العليم .

وللإمام ابن القيم كلام بديع في هذا الصدد، يكشف فيه عن وجوه العناية الملحوظة في خلق الإنسان وتصويره في الرحم، ثم في خلق أعضائه الظاهرة والباطنة على ما هي عليه^(١٦٠). وعن وجه الحكمة من خلق جسم الطائر على صورته المألوفة، وما خص به من خفة الجسم وإدماج الخلقة وخلق الريش في جناحيه وذيله لمساعدته على الطيران، وعن وجه الحكمة فيما خص به السمك من صفات في تكوينه وتركيبه تجعله مهياً للحياة في البيئة المائية^(١٦١)، وعن مظاهر العناية المشاهدة في أنواع النبات المختلفة، وكيف خص الله كل نوع منها بخصائص تحفظ عليه وجوده، وتفضي به إلى تحقيق الغاية المقصودة منه^(١٦٢). كما يتحدث عن مظاهر

(١٥٢) المؤمنون : ١٢ ، القيامة : ٢٦ ، الانفطار : ٧ ، ٨ .

(١٥٣) الأنعام : ٩٦ ، ٩٧ ، يونس : ٥ ، النحل : ١٦ .

(١٥٤) يونس : ٦٧ ، الإسراء : ١٢ ، النحل : ٨٦ .

(١٥٥) الحجر : ١٩ ، ٢٠ ، طه : ٥٣ ، فصلت : ١٠ .

(١٥٦) الأعراف : ٧٤ ، النمل : ٦١ ، النبا : ٧ .

(١٥٧) إبراهيم : ٣٢ ، النحل : ١٤ ، الجاثية : ١٢ .

(١٥٨) الأعراف : ٥٧ ، الحجر : ٢٢ ، الفرقان : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٥٩) الأنعام : ٩٩ ، إبراهيم : ٣٢ ، الفرقان : ٤٨ ، ٤٩ .

(١٦٠) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ١/١٨٧ - ١٩٦ ، ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(١٦١) المرجع السابق، ص ٢٥١ .

(١٦٢) السابق ، ص ٢٩٩ .

التوافق العجيب بين الكون والإنسان مبينا أن كل ما في العالم من كائنات قد خلق على نحو يتوافق تماما مع مصلحة الإنسان ومتطلبات حياته، بحيث لو خلقت هذه الكائنات على نحو آخر لفاتت الحكمة المقصودة من خلقها وإيجادها. فهذه كلها آيات ناطقة وبراهين ساطعة على وجود الله تعالى .

٥ - دلالة التمايز بين النباتات والحيوانات :

أما الدلالة الخامسة فهي دلالة التمايز والاختلاف النباتات والحيوانات اختلافا لم يتهيأ للعلم البشرى معرفة أسبابه، ولا التحكم في عوامله، ولا التنبؤ به قبل ظهوره، لأنه - كما يقول «وليم جيمس» يرتبط بأحوال ذرية دقيقة، لا تخضع لشيء من أنواع الملاحظة، ولأنه لا يتبع حالة خاصة من أحوال البيئة الطبيعية ونحوها، بل يجرى مع كل الحالات الممكنة لهذه البيئة، ومع ذلك كله تراه يسير في نظام غاية في الإحكام^(١٦٣).

هذا الاختلاف البديع في النباتات - مع اتحاد البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة - نجد التنبيه على موضع العبرة منه في

قول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ

حَبًا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ

أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ

(١٦٤)

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(١٦٤) الأنعام : ٩٩ .

(١٦٣) د . محمود دراز : الدين ، ص ١٧٦ .

وقوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ

مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ^(١٦٥))

وقوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا

صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ^(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ^(٢٦)
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ^(٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا ^(٢٨) وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ^(٢٩) وَحَدَادٍ غُلْبًا ^(٣٠) وَفَكْهَةً وَأَبًّا ^(٣١)
مَّتَّعَالِكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمْ ^(١٦٦))

فانظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله تعالى وقدرته بمختلف الآيات
الدالة على أن هذا التكوين والخلق المتنوع أثر من آثار القصد والإرادة والحكمة، لا من آثار
المصادفة العمياء!

إن العلم نفسه ليقف مدهوشاً أمام هذه القدرة العجيبة التي جعلت الأرض الواحدة،
والتي تسقى بماء واحد، تنبت هذه الأنواع المختلفة من النبات: النبات الأخضر المثقل بالحب،

(١٦٥) الرعد : ٤ .

(١٦٦) عبس : ٢٤ - ٣٢ .

والنخل الدانى العذوق، والجنت المكونة من الأعناب والزيتون والرمان والحب والقضب، مع التفاوت بين هذه الأنواع فى الطعم والألوان والروائح والأشكال.

إن العلماء يقولون: إن العناصر التى تتألف منها كل النبات معلومة، وكلها تمتص غذاءها من الأرض من تراب واحد، وتسقى بماء واحد، وتتفس من هواء واحد، وتصنع غذاءها وثمارها من كربون واحد؛ فالأقرب إلى المصادفة أن تنبت كلها نوعا واحدا فما السر الذى يجعلها تختلف بعضها عن بعض فى الثمرات والأكل؟

لقد اكتشف العلم أن الله - جلت قدرته - جعل فى بذور النبات، كما فى بيوض الحيوانات، عناصر التخطيط النوى للخلية حسب نوع النبات، وبهذا التخطيط تتبع النباتات سيرها فى تكوين الثمرات والأكل على اختلاف ألوانها وطعومها وأحجامها. فهل يمكن أن يدعى مدع أن هذا التخطيط النوى العجيب أثر من آثار المصادفة؟^(١٦٧).

بل إن هناك سرا معجزا فى قول الحق تعالى فى الآية السابقة: «فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا» ذلك أن الضمير فى قوله: «نخرج منه» يعود إلى الخضر، فما معنى أن الله تعالى يخرج الحب من الخضر؟

لقد اكتشف العلماء أن بناء النبات وغذائه من «الكربون»، وأن النبات يأخذ الكربون من «ثانى أكسيد الكربون» ذلك أنه يحل ثانى أكسيد الكربون إلى عنصريه: (الكربون والأكسجين) فيأخذ «الكربون» ويذيبه بالماء الممتص من جذوره وأغصانه، ويصنع منه كيانه وثماره كلها.

ولكن كيف يحل النبات «ثانى أكسيد الكربون» إلى عنصريه؟ هنا الأعجوبة! لقد وجد العلماء أن هذا (الحل) يحدث نتيجة لتفاعل كىاوى عجب بين ضوء الشمس، والمادة الخضراء، التى فى خلايا الأوراق المسماة «الكلورفيل». أما كيف يحدث هذا التفاعل بين ضوء الشمس والمادة «الخضراء» فهذا سر لا يزال العلم يعده أعجوبة من أعاجيب الخلق، وكل ما عرفه العلماء أنه لولا هذه المادة «الخضراء» المعبر عنها فى القرآن الكريم «بالخَضِر» لما حدث

(١٦٧) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان، ص ٣٦٢.

تفاعل ، ولما أمكن حل ثانى أكسيد الكربون إلى عنصري (الكربون والأوكسجين) ، ولما أمكن للنبات أن يأخذ غذاءه - وهو الكربون - ويصنع منه ثماره (١٦٨) .

ويلاحظ أن القرآن حين يبين أن الماء سبب في إنبات الزرع والأشجار والفاكهة لا يجعله السبب النهائي في ذلك كله ، وإنما يرد الأسباب كلها إلى الله تعالى وحده ولهذا نجد القرآن يستخدم أسلوب الالتفات في عدد من المواضع فيقول: «فأخرجنا» باستعمال ضمير المتكلم الدال على التعظيم بدلا من ضمير الغائب الذى بدى به الكلام أولا ، كما في الآية التاسعة والتسعين من سورة «الأنعام» والآية السابعة والعشرين من سورة «فاطر» .

وما يقال في النباتات يقال أيضا في الحيوانات ، من الدواب والطيور التى ذكرها القرآن ، وأشار إلى اختلافها ، من حيث أنواعها وأشكالها ، وأقدارها وأعضاؤها ، وألوانها ومنافعها ومضارها ، مع أنها خلقت من أصل واحد هو الماء والتراب .

يقول القرآن :

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ^ج إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^ج)
(١٦٩)

ويقول :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)
(١٧٠)

(١٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(١٦٩) النور : ٤٥ .

(١٧٠) الأنعام : ٣٨ .

ويقول:

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا
(١٧١)
وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ)

ويقول تعالى : (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ
وَأَلْأَنَعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۚ) (١٧٢)

إن من الحقائق المقررة أنه ما من حيوان إلا ويتكون من بيضة من الأنثى ولقاح من الذكر، وقد كشف العلم أن لكل نوع من أنواع الحيوانات مخططات أصيلة، خلقها الله تعالى في البيوض وفي الحيوان المنوى، وهذه المخططات العجيبة هي السبب في تميز كل جنس عن الآخر بصفاته وخواصه، مع أن الحيوانات كلها قد خلقت من الماء كما يقول القرآن (١٧٣). فهل يسوغ في منطق العقل أن يحدث هذا التنظيم والتخصيص والتمييز من تلقاء ذاته، أو يكون أثرا من آثار المصادفة العمياء؟

وأى مصادفة هذه التي كونت البرغوث والفيل، والأسد والحمل، والنملة والجمل، والعقرب بسمها النافع، والنحلة بعسلها النافع. إن هذه التنوعات العجيبة والاختلافات الكبيرة بين مخلوقات أصلها واحد لا يمكن تفسيرها إلا بالإيمان بوجود الصانع الحكيم والخالق العليم (١٧٤).

(١٧١) الحج : ٧٣ .

(١٧٢) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

(١٧٣) الأنبياء : ٣٠ ، والنور : ٤٥ .

(١٧٤) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

نفى الألوهية عن عناصر الكون

عاش الإنسان محوطاً بعناصر الكون ومظاهره المختلفة، فكان يرى الشمس والقمر والنجوم والبرق والغيث، ويسمع الرعد، فيقف إزاء هذه الظواهر حائراً لا يدري كنهها، ولا حقيقة العلاقة بينه وبينها، ومن ثم تصور أن وراءها قوى حية خفية يمكن أن تصيبه بالخير أو بالشر، ثم اشتط به الخيال، فجعل لكل مظهر من مظاهرها إلهاً في الغالب . وقد أدى به هذا التصور الميثولوجي إلى تقديس هذه الأشياء ، والتوجه إليها بالعبادة طمعاً في خيرها ودفعاً لشرها، وبذلك غدا الكون بكل عناصره قوة هائلة يعجدها الإنسان، ويخضع لها ويربط مصيره بمسيرها .

فلما جاء الإسلام وجد أمامه ركاباً هائلاً من هذه التصورات الميثولوجية عن الكون، منها ما هو في دول الحضارات الأولى كالبابليين والمجوس، ومنها ما هو في الديانات السابئية المحرفة التي احتك أتباعها بالأمم الوثنية، وتأثروا بهم تأثراً واضحاً، ومنها ما هو في عرب الجاهلية الذين تأثروا كذلك بالعقائد الوثنية لدى الأمم التي كانوا على اتصال بها من البابليين والمجوس وغيرهم .

ومن ثم كان لا بد للقرآن الكريم من أن يعلن للبشرية تصوراتهِ الصحيحة عن الكون وعناصره، وأن يصدع بهذه التصورات في قوة ووضوح، حتى يصلح تلك المفهومات المغلوطة التي دان بها الفكر البشري زمناً طويلاً، وحتى يرد الناس إلى مقتضى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي إفراد الله تعالى بالألوهية والعبادة باعتباره خالق كل شيء مما يحتوي عليه هذا الكون الرحيب، الذي ما خلقه الله تعالى إلا ليكون مسخرًا لخدمة الإنسان وتحقيق مصلحته (١٧٥) .

(١٧٥) د. كاسد الزيدى : الطبيعة في القرآن الكريم، ص ١٣ - ١٤ .

حقاً إن القرآن الكريم - كما سبق أن أوضحنا - قد قرر في كثير من آياته أن الله تعالى قد أنشأ هذا الكون ابتداء بعد عدم، وأخرجه بكل عناصره إلى الوجود من غير مادة سابقة، بمقتضى إرادته المطلقة، وقدرته القادرة التى لا يعجزها شئ، ولا شك أن ذلك يتضمن بالضرورة نفى الألوهية عن عناصر الكون جميعاً، أى عن كل ما سوى الله تعالى .

غير أننا نجد أن القرآن الكريم يعنى بهذه المسألة - نفى الألوهية عن عناصر الكون - عناية خاصة، ويخصها بحديث مستقل قصداً إلى إبطال فكرة الوثنية في شتى صورها، وحرصاً على تنقية العقيدة في الله تعالى من أى مظهر من مظاهر التقديس لغير الله الواحد القهار المتفرد بالأزلية والخلق والإيجاد، والمستحق وحده للعبادة والتقديس .

وأول ما يطالعنا في هذا الصدد إعلان القرآن الكريم أن الكون بجميع عناصره خاضع للإله الخالق وحده، لا يشاركه في الهيمنة عليه وتدير أمره مشارك، وهذا الإله الخالق هو الله تعالى المتصرف في الكون كيف يشاء وأنى يشاء. وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

(لِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)
(١٧٦)

ويقول :

(رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)
(١٧٧)

فهذه النصوص صريحة في أن السماوات والأرض ، وسائر أجزائها، وما بينهما من العناصر الكونية، ملك لله تعالى وحده، ومن ثم تثبت له الألوهية وحده، وتتفنى عن كل ما

(١٧٦) المائدة : ١٢٠ .

(١٧٧) النبأ : ٣٧ .

سواه. ويدل على هذا التخصيص تقدم الجار والمجرور في صدر الآية الأولى إشعاراً بأن الله تعالى هو - وحده - المالك والإله لكل ما ذكر، وأن ما عداه ليس بمالك ولا إله .

كذلك يقول القرآن الكريم : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)^(١٧٨)

فهذه الآية تقرر أنه لو كان المدبر لأمر السماوات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذى فطرهما لفسدتا واختل نظامهما، وفى هذا دلالة على أمرين: أحدهما وجوب ألا يكون مدبرهما إلا واحداً؛ لأنها فى غاية النظام والاتساق، والثانى أن ذلك الواحد لا يكون إلا إياه وحده جل جلاله لقوله: «إلا الله»^(١٧٩) .

وهكذا نجد القرآن الكريم يجمع عناصر الكون كلها تحت سلطان الله وحده، ويضعها فى قبضته، يديرها بحكمته ويصرفها بقدرته، ويرعاها بعنايته. ويعد هذا الإعلان القرآنى رفضاً باتاً وتصحيحاً عقدياً للتصور الوثنى القديم الذى كان يجعل العالم نهبا بين آلهة متعددة، كما هو الحال مثلاً فى قصة الخليقة البابلية القائلة بالصراع بين الإله «مردوخ» الذى هو الإله «المريخ» وبين «تيامة» و «أبسو» وهما الإلهان اللذان يمثلان المياه الأولى^(١٨٠). كما يعد رفضاً وتصحيحاً للتصور الفارسى القائل بالثنوية التى تعنى وجود إلهين يتنازعان السيطرة على الكون هما «يزدان» إله النور، و «أهريمان» إله الظلام^(١٨١). وأيضاً للتصور الأسطورى لدى قدماء المصريين، وهو التصور القائل بالصراع بين إله الشمس وإله الليل، أو إله النور وإله الظلام^(١٨٢) .

وقد عنى القرآن فى هذا الصدد بإبطال العقيدة الوثنية الخاصة بتأليه الجن وعبادتهم،

(١٧٨) الأنبياء : ٢٢ .

(١٧٩) الزمخشري : الكشف ٣٢٥/٢ .

(١٨٠) ط باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات الأولى ٤٥٧/١ - ٤٥٨ .

(١٨١) الشهرستانى : الملل والنحل ٥٩/٢ .

(١٨٢) عباس العقاد : إبليس ، ص ٥٦ .

واعتبارهم شركاء لله تعالى في تدبير أمر الكون، ورد على أصحابها - وهم بنو مليح من خزاعة - بما يبين فساد هذه العقيدة .

قال الله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يَصِفُونَ) (١٨٣)

والقرآن الكريم يواجههم بسخف هذا الاعتقاد بكلمة واحدة هي قوله : «وخلقهم» ، وهي لفظة واحدة، ولكنها تكفى للسخرية من هذا التصور الفاسد، فإذا كان الله تعالى هو الذى «خلقهم» فكيف يكونون شركاء له فى الألوهية والربوبية !

كذلك تصدى القرآن للرد على مؤهلة المسيح عليه السلام والقائلين بالتثليث من النصارى، وكفرهم بسبب هذه العقيدة الزائغة ، فقال:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) (١٨٤)

وقال :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ
إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ) (١٨٥)

وأعلن بشرية المسيح عليه السلام فقال :

(١٨٣) الأنعام : ١٠٠ .

(١٨٤) المائدة : ١٧ ، ٧٢ .

(١٨٥) المائدة : ٧٣ .

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ)^(١٨٦)

وقال :

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)^(١٨٧)

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح - عليه السلام - وأمه الصديقة، وهى خصيصة من خصائص الأحياء الحادئين، ودليل على بشرية المسيح وأمه - أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتى - فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهًا من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله - تعالى - حى بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، منزّه عن الحاجة إلى الطعام وغير الطعام^(١٨٨).

كما قرر القرآن الكريم أن المسيح - عليه السلام - ومعه الملائكة المقربون - لا يستكفون أن يكونوا عبادا لله تعالى ولا يستكبرون عن الإقرار له بالربوبية والوحدانية :

(لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا
الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)^(١٨٩)

وبين أن كل المعجزات التى تحققت للمسيح - عليه السلام - كانت خوارق خصه الله تعالى بها لإثبات نبوته وتصديقه فى دعواه الرسالة، وأنها ما وقعت إلا بإذن الله تعالى :

(١٨٦) النساء : ١٧١ .

(١٨٧) المائدة : ٧٥ .

(١٨٨) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢/٩٤٥ .

(١٨٩) النساء : ١٧٢ .

كقوله تعالى : (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي
 قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ^ط أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ
 (١٩٠)
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)

وقوله تعالى : (وَإِذْ نَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ^ط
 وَنَبِّئِ الْأَنْمِيَّةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمُوْتَىٰ
 (١٩١) ^ط
 بِإِذْنِي)

وفي مجال الحديث عن الشمس والقمر والنجوم نجد القرآن الكريم يحرص على نفى
 الألوهية عن هذه الأجرام السماوية، حيث إنها كانت موضع تقديس كثير من الأمم قبل
 الإسلام، ومن ثم نجده يصف هذه العناصر الكونية بأنها «آيات» ، وبأنها «مخلوقة» إظهارا
 لربوبية الخالق لها وإبطالا لألوهيتها،

قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ
 اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

(١٩٠) آل عمران: ٧٩ .

(١٩١) المائدة : ١١٠ .

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاتَّبِعُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٩٢)

وفي موطن آخر يستدل القرآن على نفى الألوهية عن الأجرام السماوية بصفاتها وأعراضها الملازمة لها، فيجعل حركتها وسكونها، وظهورها وأفولها، دليلاً على حدوثها ونفى ألوهيتها، وهذا ما نجده في محاوره إبراهيم عليه السلام لقومه (١٩٣)، حين أبطل عقيدتهم في تأليه الكواكب عن طريق الاستدلال بظهورها وأفولها اللذين هما برهان تغيرها وحدثها واختراعها، واقتزارها في وجودها إلى الخالق القادر المختار، وخلص من ذلك إلى نفى ألوهيتها لقيام دليل الحدوث فيها، وإلى وجوب الاعتقاد بأن وراءها محدثاً أحدثها وخالقاً خلقها، ومدبراً حكماً دبر طلوعها وأفولها، وانتقالها وسيرها وسائر أحوالها، وهذا الخالق هو وحده الإله المستحق للعبادة والتقديس (١٩٤). ومن ثم نجد الخليل - عليه السلام - بعد أن استدلل على بطلان عقيدة قومه في تأليه الكواكب - يعلن لهم عن عقيدته في التوحيد الذي هو محض الحق

بقوله : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (١٩٥)

وتكشف لنا محاوره الخليل - عليه السلام - لقومه عن حقيقة هامة، هي أن قضية الاعتقاد في ألوهية الكواكب لها خطرها البالغ على تفكير الإنسان، وتصوره لطبيعة العلاقة التي تربطه بعناصر هذا الكون، حيث إن هذا الاعتقاد الفاسد يهدر قيمة الإنسان، ويهبط به من علياء الدرجة الرفيعة التي بوأه الله إياها في هذا الوجود، ويجعله تابعا لا متبوعا .

(١٩٢) فصلت : ٣٧ .

(١٩٣) الأنعام : ٧٤ - ٧٩ .

(١٩٤) انظر الزمخشري : الكشاف ٥١٣/١، والرازي : مفاتيح الغيب ٧٨/٤، ٧٩، والشوكاني : فتح القدير ١٣٣/٢ -

١٣٤ .

(١٩٥) الأنعام : ٧٩ .

وهكذا يتضح أن القرآن لم ينقل هذه المناظرة لمجرد السرد القصصى، بل لتقديم البرهان لأهل الشرك جميعا على أن الكواكب حادثة مخلوقة، والحادث المخلوق لا ينبغي أن يكون محلا للتعظيم والتقديس، ولا أهلا للخوف والخشية، وتوقع الخير أو الضرر، فضلا عن أن يكون جديرا بالعبادة، تعنوا له الوجه وتسجد له الجباه.

كقوله تعالى : (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
(١٩٦)
تَعْبُدُونَ)

ويعد موقف القرآن الكريم من قضية تأليه الكواكب، وحرصه على إبطال هذا المعتقد الزائف، فتحا مبينا في تاريخ العقيدة، إذا ما قورن بموقف الفكر الوثني القديم الذى كان يقدس هذه الأجرام، ويثبت لها فعلا وتأثيرا فى الكون بذاتها، ويتجه إليها بالعبادة. ويتبين ذلك - على سبيل المثال - من إحدى الأناشيد المصرية القديمة التى كانت تقدم للإله «أمون رع» الذى كان يمثل قرص الشمس، حيث وصف فيها هذا الإله بأنه الواحد الأزلى الخالق لكل شئ، الذى لم يكن قبله شئ، وهو قرص الشمس الذى يحى جميع البشر بظهوره (١٩٧).

كذلك كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بالتنجيم، وينسبون الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط والطالع من الكواكب، على أنها من المؤثرات بطبيعتها والمحدثات بذواتها لهذه التغيرات الجوية، لا على أنها مسخرات بأمر الله تعالى؛ ولهذا جاء الإسلام يكفر من ينسب هذه الأفعال إلى الكواكب، ولا ينسبها إلى الخالق المسخر المدير لأمر الملكوت (١٩٨).

جاء فى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهنى أنه قال : «صلى بنا رسول الله

(١٩٦) فصلت : ٣٧ .

(١٩٧) أنطون زكرى : الأدب والدين عند قدماء المصريين، ص ٦٧ .

(١٩٨) آدم الألورى : الإسلام وتقاليد الجاهلية، ص ٧٦ .

- صلى الله عليه وسلم - صلاة الصبح بالحديبية - على أثر سماء كانت من الليل - فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب» (١٩٩) .

ويجب التنبيه على أن هناك فرقا بين التنجيم وعلم النجوم، فأما التنجيم فهو ما سبقت الإشارة إليه من الزعم بأن الأجرام السماوية لها تأثير بذواتها على حياة الناس، وادعاء أرباب هذا العلم أنهم يعرفون حوادث الكائنات بالنظر فى الكواكب وسيرها، وتنقلات الشمس فى بروجها والقمر فى منازلها، وهذا هو ما جاء الإسلام بإبطاله .

وأما علم النجوم فهو معرفة أوضاع الأجرام السماوية وسيرها وتنقلاتها، وربط ذلك بالشهور والفصول، وهذا علم ثابت تعرف به مواقيت الصلاة والصيام والحج والزرع والحصاد، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك (٢٠٠). وقد أجمع علماء الإسلام على جواز تعلم هذا العلم لمعرفة عجائب السماوات، ومعرفة مواقيت العبادات، وجهات القبلة وغير ذلك (٢٠١) .

ولم يقتصر الأمر على مسألة التنجيم، بل لقد عرف بعض العرب عبادة الكواكب، كما عرفها الفرس، وهذه هى المجوسية. قال صاعد فى طبقات الأمم: «كانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وقيم الدابران، ولخم وجذام المشتري، وطى سهيلا، وقيس الشعرى، وأسد عطارد». وكانت الشمس فى مفهوم عرب الجنوب إلها، وهى «أم عشتار» وهى عندهم إلهة البركة والخصب والحبل (٢٠٢). ولذا كانوا يسمون أبناءهم «عبد الشارق» و«عبد الشمس» (٢٠٣) .

وقد رد القرآن الكريم على هذا الفريق من مؤلة الكواكب (٢٠٤) مبينا فساد عقيدتهم، وذلك أن هذه الكواكب جميعها من خلق الله تعالى، فكيف تكون أهلا للعبادة والتقديس !

(١٩٩) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (انظر فتح البارى ٣٣٣/٢) وأخرجه مسلم فى كتابه الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالنوء (انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٥٩/٢ ، ٦٠) .

(٢٠٠) بونس : ٥ .

(٢٠١) آدم الأتورى : المرجع السابق ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢٠٢) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٠/٥ .

(٢٠٣) النجيرمى: إيمان العرب فى الجاهلية، ص ١٨ .

(٢٠٤) فصلت : ٣٧ .

هذا فضلا عما عرف عن دول الحضارات الأولى من تقديس هذه الأجرام وتأليهها، فقد كان كل من الشمس والقمر إلهًا مرموقًا لدى البابليين، كما قدس الهنود القدماء القمر وأهوه، وأطلقوا عليه رب الليل (٢٠٥). وكان كهنة مصر أيضا يقدسون الكواكب، ويزعمون أنها تخبرهم بالغيوب، وتعلمهم أسرار الطبائع، وتفيض عليهم العلوم المكتومة (٢٠٦).

وهكذا يتضح أن التصور الإسلامي الرشيد، الذي أعلنه الإسلام الحنيف في مواجهة كافة التصورات الوثنية المنحرفة، والمفاهيم الميثولوجية المغلوطة عن الكون وعناصره، كان وثبة هائلة انتقلت بالبشرية من ذل التبعية المهينة لعناصر الكون إلى عز التوحيد للخالق جل جلاله، وردت إلى الإنسان اعتباره وإنسانيته، ووضعت موضعه الصحيح في الكون والحياة.

سنن الكون

السنن هي مجموع النواميس أو القوانين التي يسير عليها الكون، بما فيه ومن فيه، وفق النظام المرسوم الذي قدره الخالق المبدع جل شأنه، والمتأمل في هذا الكون الفسيح يرى أنه، بكل ما يحتوى عليه من كائنات متعددة وظواهر مختلفة، قائم على الحق ثابت على الناموس، لا يضطرب نظامه، ولا تتفرق به السبل، ولا تتخلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العمياء، ولا وفق الهوى المتقلب، إنما يمضي وفق نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا (٢٠٧)، وحوادثه مرتبط بعضها ببعض، ما بين نظام سابق ونظام لاحق، بانتظام واطراد يدلان على أنها تتبع سننا ثابتة، وقوانين مطردة في حدوثها وحركتها وتطورها (٢٠٨).

فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفق قاعدة مطردة، لا قبل لها بالخروج عليها، ولو قيد شعرة، والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس بطريقة منتظمة، لا يدب

(٢٠٥) د. كاسد الزيدى: الطبيعة في القرآن الكريم، ص ١٨.

(٢٠٦) المسعودي: أخبار الزمان، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢٠٧) سيد قطب: في ظلال القرآن م ٢٧٥٩/٥.

(٢٠٨) محمد المبارك: نظام الإسلام، ص ٤٣.

فيما قدر لها - من الزمن والحركة والمسار - وجيب التغير والتبدل. والماء والهواء، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، كلها مدعنة لنظام مرسوم، وللحيوانات والنباتات وسائر الكائنات الحية ضوابط ثابتة، لا تنمو ولا تنقص، ولا تحيا ولا تموت إلا بموجبها .

والإنسان كذلك مدعن لسنن الله تعالى إذعانا تاما، فهو لا يتنفس ولا ينمو ولا يحس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقا للقانون الذي سنة الله تعالى لتنظيم حياته. ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الإنسان في حركته، ودمه في دورته، ونفسه في دخوله وخروجه، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماع والمعدة والرئة والأعصاب والعضلات واليدين والرجلين والعينين واللسان والأذن والأنف، فليست الوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء جميعا إلا ما قدره الله لها، وهي لا تقوم بها إلا وفق السنن التي جرى بها قدر الله تعالى (٢٠٩).

وقد أشار القرآن الكريم في عديد من الآيات إلى بعض هذه السنن التي تحكم مسيرة الكون، ودعا الإنسان إلى تأملها واعتبارها بوصفها آيات دالة على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته، ثم ليبذل الإنسان جهده في محاولة التعرف على السنن التي أودعها الله في هذا الكون من أجل تسخيرها لمصلحته والانتفاع بها في حياته .

عن السنن الكونية التي تخضع لها الأجرام السماوية في حركاتها.

يقول القرآن الكريم : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ

تَجْرِي لِمْسْتَقَرٍّ هَآءَ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾

وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾

(٢٠٩) أبو الأعلى المودودي : مبادئ الإسلام ص ٤ - ٥ .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ
النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٢١٠)

ويقول :

(وَتَخَّرَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى^{ج (٢١١)})

ويقول :

(وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ^{هـ}
الْأَلَهُ الْخَالِقُ وَالْأَمْرُ^(٢١٢))

هذا ما يقوله القرآن عن الشمس والقمر والنجوم وتسخيرها بأمر الله تعالى وجريانها وفق سنة محددة. وقد جاء العلماء فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار، فعرفوا أن الشمس تجرى في الفضاء الكوني الهائل بسرعة اثني عشر ميلا في الثانية، وهي تجرى لمستقرها لا يعلمه إلا الله سبحانه ولا يعلم مواعده سواه. وحين نتصور أن حجم الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم الأرض، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى في الفضاء دون أن يسندها شيء، ندرك طرفا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن علم واقتدار.

والقمر يولد هلالا ثم يأخذ في النمو والزيادة حتى يصير بدرا، ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم، وهو عذق البلح من النخلة، والقلب الذي يعيش مع القمر دورة كاملة لا ينجم من تأثيرات وسبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام الكوني الدقيق «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار» .

(٢١٠) يس : ٣٧ - ٤٠ .

(٢١١) فاطر : ١٣ .

(٢١٢) الأعراف : ٥٤ .

وتسخير الشمس والقمر وجريانها للأجل المرسوم لها ظاهرة يراها كل إنسان، فهما يظهران ويختفيان أمام كل إنسان، ويصعدان وينحدران أمام كل بصر، وهذه الحركة الدائبة التي لا تفتر ولا تحتل حركة مشهودة لا يحتاج تدبرها إلى علم وحساب، ومن ثم فهي آية معروضة في صفحة الكون لجميع العقول وجميع الأجيال على السواء .

ثم إن النجوم كذلك تتحرك في مداراتها مسخرات بأمر الله، وهى ذوات أحجام ضخمة لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها، ولكل نجم أو كوكب فلك لا تتجاوزه في جريانه أو دورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، كما أن أحجامها هائلة، فالمسافة بين الأرض والشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال، والقمر يبعد عن الأرض بحوالى أربعين ومائتى ألف من الأميال. وهذه المسافة على بعدها لا تعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية، وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا، وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة، أى أن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة ملايين مليون ميل .

وقد قدر الله تعالى أن تقوم هذه المسافات والأبعاد الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب والمجرات، ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بعلمه وقدرته من التصادم والخلل والتصدع، حتى يحين الأجل المعلوم. هذا كله من ناحية الحجم العام والأبعاد والنظام، فأما أسرار هذه الخلائق العجيبة وطبائعها، وما يستكن فيها وما يظهر عليها، والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها، فشىء أعظم من أن يحيط به الإدراك البشرى (٢١٣) .

ويدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار، وأن حجم الكثير منها يبلغ مثل حجم الأرض ملايين المرات، وأن الفضاء الكونى تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة، منها ما يتحرك وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات، وهى مع هذه الكثرة الهائلة فى العدد، والأحجام المذهلة، والسرعات الخارقة، تتحرك وفق نظام دقيق وقواعد محكمة، بحيث لا يصادم بعضها بعضاً .

(٢١٣) سيد قطب: فى ظلال القرآن ٥م/ ٢٧٦٤ ، ٢٩٣٥ ، ٢٩٦٩ .

كما يقرر علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى مثلها، تتحرك سياراتها أيضا، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين. وإن العقل حين ينظر إلى هذا النظام العجيب والناموس الدقيق لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائما بنفسه، بل إن هناك قدرة قادرة وإرادة مدبرة هي التي تقيم هذا النظام العجيب وتهيمن عليه (٢١٤).

وعن القوانين التي تخضع لها الأرض.

يقول القرآن الكريم : (أَمَّنْ جَعَلَ

الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ (٢١٥)

ويقول : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ

شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٢١٦﴾
ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٢١٦)

ويقول :

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
(٢١٧)
صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(٢١٤) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى، ص ٧٥ - ٧٩ .

(٢١٥) النمل : ٦١ .

(٢١٧) النمل : ٨٨ .

(٢١٦) الفرقان : ٤٥ - ٤٦ .

إن الآية الأولى - كما يذكر العلماء - تشير بوضوح إلى قانون الجاذبية والكثافة، وهما سبب قرارنا على هذه الأرض، فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا لشيء على الأرض قرار أبداً؛ لأن الأرض تدور حول نفسها بسرعة مقدارها ألف ميل في الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة توشك أن تقذف بها في الفضاء، ولكن الأرض لا تقذفنا لأن جاذبيتها وضغط الهواء المستمر على أجسامنا يكساننا فوقها بنسبة معلومة، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين إلى كرة الأرض من كل ناحية^(٢١٨). إنه لولا الجاذبية التي تربطنا بالأرض، ولولا التعادل العجيب بين هذه الجاذبية وقوة البعد عن المركز (Force centrifuge) لطرنا عن ظهر الأرض، وانتشرنا في الفضاء انتشاراً نحن وبيوتنا، وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين. فهل يكون هذا التاموس الدقيق والاتقان العجيب والصنع المعجز أثراً من آثار المصادفة^(٢١٩)!!

والآية الثانية والثالثة تشيران بوضوح إلى دورة الأرض اليومية حول محورها، وما ينشأ عنها من تعاقب الليل والنهار. ويفهم هذا من ذكر «مرور الجبال مر السحاب»، ومن ذكر «مد الظل وقبضه» بغياب الشمس. وهذا ما تشير إليه أيضاً الآيات التي ورد فيها ذكر التكوير، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وطلب كل منهما للآخر حثيثاً، فإن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية؛ لأن قوله تعالى :

(يَكْوِرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوِرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ)^(٢٢٠)

وقوله :

(يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ)^(٢٢١)

وقوله : (يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا)^(٢٢٢)

(٢١٨) الإسلام يتحدى، ص ٨٦ .

(٢١٩) الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان، ص ٣٢١ .

(٢٢٠) الزمر: ٥ .

(٢٢١) فاطر: ١٣ .

(٢٢٢) الأعراف: ٥٤

يتجلى فيها كلها معنى التلاحق، وأن تكوير كل من الليل والنهار على الآخر يجري في آن واحد، فكلما تكور الليل على النهار في جزء من الأرض تكور مثله النهار على الليل في الجزء الذي يليه، ولا يتصور هذا المعنى مع تصور الأرض مبسوطة ساكنة، كما كان رأى الأقدمين، ولأنها لو كانت كذلك كانت الشمس إذا طلعت عليها أنارتها من أولها إلى آخرها دفعة واحدة، وإذا غابت عنها أظلمت دفعة واحدة (٢٢٣) .

ثم إن الأرض تخضع لقانون دقيق في أثناء دورانها حول نفسها وحول الشمس، إذ يكون وضعها على مدارها مائلاً بزاوية قدرها ٣٣ درجة، ولو لا هذا الوضع لاختل نظام الفصول الأربعة المتعاقبة على الأرض، ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق في صيف دائم، وأصبح شبالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج، وما بقى على الأرض غير جبال الثلج وفيافي الصحراوات. وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة، فهذه الدرجة من الميل هي الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب . وهل هذه الدرجة إلا تعبير عن الناموس الدقيق الذى تخضع له الأرض في مسيرتها وفق تقدير الله العزيز العليم (٢٢٤) !.

وعن ناموس المطر يقول القرآن :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (٢٢٥)

ويقول : (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ

الرَّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) (٢٢٦)

(٢٢٣) الشيخ نديم الجسر : المرجع السابق، ص ٣١٨ ، ٣٢١ .

(٢٢٤) المرجع السابق، ص ٣٢٢ . والإسلام يتحدى، ص ٨٨ .

(٢٢٦) الروم : ٤٨ .

(٢٢٥) النور : ٤٣ .

ويقول :

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ،
حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا
بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۖ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)
(٢٦٧) -

إن هذه الآيات تحدثنا عن الناموس الذى تخضع له عملية المطر التى ألفناها فأصبحنا نرى بها معرضين عما فيها من نظام عجيب ... إن الله تعالى يرسل الرياح، وفق ناموسه فى تكوين هذا الكون، فتثير سحباً بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء فى البحار بفعل الحرارة والتبخر، فيفرشه فى السماء تارة سائراً وتارة واقفاً، وتارة مطبقاً وتارة غير مطبق، ويجعله كسفاً بتجميعه وتكثيفه بعضه فوق بعض، أو يصطدم بعضه ببعض، أو تنبعث شرارة كهربية بين طبقة منه وطبقة، فترى الودق وهو المطر يتساقط من خلال السحاب (٢٢٨)

إن هذه الأعجوبة - أعجوبة المطر - ما كانت تتم أبداً لولا اجتماع هذه الأسباب التى تؤلف الناموس الذى جرت به سنة الله تعالى من حركة الأرض، ودوراتها حول الشمس، وميلها فى مدارها، واتساع سطوح البحار، وحرارة الشمس والتبخر، والتكاثف والرياح والبرق، فهل يعقل أن تجتمع كل هذه الأسباب والنواميس دفعة واحدة بطريق المصادفة العمياء (٢٢٩) ، سبحانه يا إلهى هذا بهتان عظيم !

وعن قانون خلق الإنسان وأطوار تكوينه .

يقول القرآن : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ
مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ۖ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ

(٢٢٨) انظر فتح القدير ٤/ ٤١ ، ٢٣٠ .

(٢٢٧) الأعراف : ٥٧ .

(٢٢٩) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ص ٣٤٤ .

خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
 آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (٢٣٠)

ويقول :

(أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى ﴿٢٣٠﴾ ثُمَّ كَانَ
 عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢٣١﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
 الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٢٣١))

إن هذه النصوص تحدثنا عن ناموس خلق الإنسان، وتطوره وهو جنين في بطن أمه، من النطفة التي هي تلخيص للإنسان بكل خصائصه وصفاته بعد تمام خلقه، إلى العلقه وهي الدم الجامد المتكون من المني حين تمتاز خلية الذكر ببويضة الأنثى وتعلق بجدار الرحم، إلى المضغة وهي القطعة من اللحم، إلى العظام المتصلبة لتكون عمودا للبدن على أشكال مخصوصة، ثم تأتي مرحلة كسوة العظام باللحم «فكسونا العظام لحما» أى أنبت الله تعالى على كل عظم لحما على المقدار الذى يناسبه .

وهنا يقف الإنسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف إلا بعد تقدم علم الأجنة التشريحي، وهى أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وأن خلايا اللحم لا تتكون إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتنام الهيكل العظمى للجنين. وتلك هى الحقيقة التى يسجلها القرآن الكريم: «فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما». ثم تأتى أخيرا مرحلة الإنشاء الإنسانى خلقا آخر، وهذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة، حيث يتحول

(٢٣٠) المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

(٢٣١) القيامة : ٣٧ - ٣٩ .

جنين الإنسان إلى تلك الخليقة السوية المتميزة المستعدة للارتقاء، ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان مجردا من خصائص الارتقاء والكمال (٢٣٢) .

وعن الناموس الذى يخضع له الإنسان في تطوره - بعد الولادة - من الضعف إلى القوة ثم من القوة إلى الضعف يقول القرآن :

(* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ) (٢٣٣)

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) (٢٣٤)

وكقوله تعالى : (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ
الْعُمُرِ لَكُمْ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (٢٣٥)

هكذا يبدأ الإنسان حياته على الأرض طفلا ضعيفا ، ثم يأخذ في النمو شيئا فشيئا حتى يصل إلى سن الفتوة وضلعة التكوين، ثم يأخذ بعد ذلك في الضعف والانتكاس شيئا فشيئا

(٢٣٢) انظر فتح القدير ٤٣٦/٣ ، ٤٧٧ ، وفي ظلال القرآن م٤/٢٤٥٨ - ٢٤٥٩ .

(٢٣٣) الروم : ٥٤ .

(٢٣٤) يس : ٦٨ .

(٢٣٥) الحج : ٥ .

حتى يبلغ مرحلة الشيخوخة، فيرتد طفلا في كل شيء، في عواطفه وانفعالاته، وفي وعيه ومعلوماته، وفي تقديره وتديره، ويظل في هذا الانحدار حتى يوافيه الأجل المحتوم .

إن هذه الأطوار التي تتعاور تلك الخليقة البشرية، والتي لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء، والتي لا تتخلف مرة فيمن يد له في العمر، لهى تعبير عن الناموس الصارم الذى جرت به سنة الله في الخليقة لتحدد لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره وفق علم وثيق وتقدير دقيق^(٢٣٦)

هذا فضلا عما يحتوى عليه الكون من نواميس أخرى كثيرة، مثل السنن الرياضية المحكمة^(٢٣٧)، وقانون التوازن بين الحياة النباتية والحياة الحيوانية في تبادل الأوكسجين وثنائى أوكسيد الكربون، وهو توازن تستمر عن طريقه الحياة^(٢٣٨)، وقانون التحرك الذرى العجيب الذى يحاكى قانون الدوران الدقيق الموجود فى النظام الشمسى، حيث نجد أن الذرة فى حركة مستمرة من داخلها، وأنها مؤلفة من الكترونات وأوكهارب تدور فى فلك حول النواة أو النويات وهى قلب الذرة، وأن هذه الحركة مستمرة ومطرودة فى كل ذرة، وأن كل ذرة شمس تدور حولها كواكب كشمسنا هذه وكواكبها التى ما تنى تدور حولها باستمرار، هذا مع ما هو معروف من أن الذرة هى أصغر عالم، وأنها قد تناهت فى صغرها، حتى إنها لا ترى بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات^(٢٣٩) .

وهكذا يتبدى لنا أن كل شيء فى هذا الوجود الذى نعيش فيه، والذى نحن قطعة منه، يسير وفق ناموس مطرد، ويعمل فى إطار سنة ثابتة، وأنه لا مكان فى هذا الكون للمصادفة العمياء، ولا للقلته العارضة؛ فسبحان ربنا الأعلى

(٢٤٠)

(الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ)

(٢٣٦) فى ظلال القرآن م٤/٢٤١٠ - ٢٧٧٦/٥ - ٢٧٧٧ .

(٢٣٧) الإسلام يتحدى، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢٣٨) العلم يدعو للإيمان، ص ١٠٠ .

(٢٣٩) فى ظلال القرآن م١/٢٨٠ - والإسلام يتحدى، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢٤٠) الأعلى: ٢، ٣٠ .

وسبحان مدبر أمر الملكوت الذى

(٢٤١)

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)

وحفظ كل شئ فيها، وإمساكه عن الخروج على السنة، أو الشروء عن الناموس الذى وضعه له الخالق جل جلاله.

والقائل :

(٢٤٢)

(وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)

وسبحان ربنا القائل : (* إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ

(٢٤٣)

مِنْ بَعْدِهِ)

إن النظر فى هذه الآيات الكريمة جدير بأن يفتح البصيرة على اليد الخفية القاهرة القادرة التى أنشأت - من عدم - هذه السماوات والأرض، وما فيها من الخلائق الهائلة العجيبة، وحددت لكل شئ سنته التى بها قوام وجوده وانتظام أمره، والتى تمسك بالسماوات والأرض وتحفظها أن تزول «ولئن زالت السماوات والأرض عن مواضعها، واختلت وتناثرت بددا، فما أحد بقادر على أن يمسكها بعد ذلك أبدا، وذلك هو الموعد الذى ضربه القرآن كثيرا لنهاية هذا العالم ، حين يختل نظام الأفلاك وتضطرب وتتحطم وتتناثر، ويذهب كل شئ فى هذا الفضاء، لا يمسك أحد زمامه» (٢٤٤) .

(٢٤١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢٤٢) فاطر : ٤١ .

(٢٤٣) الروم : ٢٥ .

(٢٤٤) فى ظلال القرآن م٢٩٤٨/٥ .

ويحدثنا القرآن الكريم أيضا عن نوع آخر من السنن الكونية، التي جرى ويجرى بها قدر الله تعالى في الخليقة حين تخالف عن أمره - سبحانه - وتتمرد على منهجه وتكذب رسله، فيدمم الله على الأمم المكذبة، ويهلكهم بظلمهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)^(٢٤٥)

ويقول :

(وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)^(٢٤٦)

ويقول : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى
قَوْمِهِمْ بِجَاءِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُوا^ط
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢٤٧)

(٢٤٥) آل عمران : ١٣٧ .

(٢٤٦) يونس : ١٣ .

(٢٤٧) الرعد : ٤٧ .

ويقول : (وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)^(٢٤٨)

ومن الأهمية بمكان أن ننبه هنا على فكرة طلاقة المشيئة الإلهية تجاه ثبات السنن الكونية، وهى فكرة أساسية فى التصور الإسلامى للكون يلح القرآن عليها كثيرا، ومؤداها أنه إذا كان الكون بكل ما فيه يسير على قوانين ثابتة وسنن مطردة، فإن ذلك لا يعنى أنه متروك لقوانين آلية صماء، وسنن حتمية عمياء، بل هناك دائما - وراء السنن والقوانين - الإرادة المدبرة والمشيئة المطلقة التى لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشرى جملة، وهى تبدع كل شئ بمجرد توجيهها إلى إبداعه، وليست هناك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلزمه المشيئة الإلهية حين تريد أن تفعل ما تريد، فالله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، وهو - سبحانه - يفعل ما يريد، ولولم يكن جاريا على ما اعتاد الناس أن يروا المشيئة متجلية فيه من السنن المقررة والنواميس المطردة .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢٤٩)

ويقول :

(قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي
عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)^(٢٥٠)

(٢٤٨) فاطر : ٤٣ .

(٢٤٩) النحل : ٤٠ .

(٢٥٠) آل عمران : ٤٠ .

إنه زكريا عليه السلام الشيخ الكبير، يدعو الله تعالى أن يهب له من لدنه ذرية صالحة، فيستجيب الله دعاءه ويبشره ببيحيى عليه السلام، فيستعظم زكريا - عليه السلام - حدوث الولد منه ومن زوجه وهما على تلك الحال، ويريد أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر «أنى يكون لى غلام» فيأتيه الجواب فى وضوح ويسر، يرد الأمر إلى نصابه وإلى حقيقته التى لا عسر فى فهمها: «كذلك يفعل الله ما يشاء» بهذا اليسر وبهذه الطلاقة يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة، فلا مألوف ولا غريب بالقياس إلى الله تعالى، وإنما كل شئ مرده إلى توجه المشيئة، والمشيئة مطلقة من كل القيود^(٢٥١).

وفى نطاق طلاقة المشيئة أيضا يقول القرآن على لسان مريم عليها السلام:

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)^(٢٥٢)

إنها مريم الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر تتلقى البشارة من الملائكة بعيسى عليه السلام، فتناجى ربه، وتتطلع إلى كشف هذا اللغز العجيب «أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر» فقد جرى مألوف الناس على أن الحمل والإنجاب لا يكون إلا عن طريق التقاء ذكر وأنثى ، واجتماع بويضة أنثى وخلية تذكير، ويأتيها الجواب يردها إلى الحقيقة الواضحة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة: «كذلك الله يخلق ما يشاء». وحين يرد الأمر إلى الله تعالى خالق الأسباب والمسببات يذهب العجب وتزول الحيرة^(٢٥٣).

وعلى هذا النسق أيضا نقرأ قول الحق تعالى فى شأن إبراهيم - عليه السلام - وقومه :

(٢٥١) فتح القدير ٣٣٧/١ - ٣٣٨ وفى ظلال القرآن م١٠/٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢٥٢) آل عمران : ٤٧ .

(٢٥٣) فى ظلال القرآن م١٠/٣٩٨ .

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ ﴿٢٥٤﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٥٥﴾
(٢٥٤) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)

وهكذا - بمشيئة الله تعالى - بطل قانون إحراق النار، وصارت بردا وسلاما على إبراهيم، ولا ينبغي لإنسان أن يسأل : كيف لم تحرق النار إبراهيم - عليه السلام - والمشهود أنها تحرق الأجسام الحية، لأن الذي قال للنار: كوني حارقة هو الذي قال لها كوني بردا وسلاما. وكلمة «كوني» هي الكلمة التي تكون بها أكوان وتنشأ بها عوالم. كما نقرأ قوله تعالى في شأن موسى عليه السلام :

(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)
(٢٥٥)

وهكذا انفلق البحر، ووقعت المعجزة، وانخرقت قاعدة وحدة الماء وتجمعه أمام مشيئة الله تعالى وتحقق ما يقول عنه بعض الناس إنه مستحيل، لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور، وقد فاتهم أن الله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد .

هذا هو المنهج الذي ينبغي أن يلتزم به المسلم في تصوره للمعجزات التي أجزاها الله تعالى على أيدي رسله - عليهم السلام - تأييدا لهم. وكل منهج في تصور المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه؛ لأن أفعال الله تعالى غير خاضعة لمقاييس البشر ولا جارية على مألوف عاداتهم (٢٥٦) .

(٢٥٤) الأنبياء : ٦٨ - ٧٠ .

(٢٥٥) الشعراء : ٦٣ .

(٢٥٦) في ظلال القرآن م ٢٣٨٧/٤ م ٢٥٩٩/٥ .

تسخير الكون للإنسان

الإنسان في التصور القرآني هو قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها عند الله تعالى، لما أودعه الله فيه من مزايا وقدرات، ولما ميزه به من خصائص وصفات، ولما أعده له من جليل الغايات التي لا تصل إلى مثلها سائر الكائنات الأخرى^(٢٥٧)، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في آيات كثيرة^(٢٥٨). وحسب الإنسان كرامة على خالقه أن فيه نفخة من روح الله حتى ليأمر الله الملائكة - وهم عباده المكرمون - أن يسجدوا لآدم عليه السلام سجود التكريم، وحسبه رفعة وسمو درجة أن الحق - سبحانه - اختاره ليكون خليفة له في الأرض، ليقوم بتعمير الكون ويحمل أمانة الرسالة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان .

ويلفت القرآن الكريم نظر الإنسان في كثير من آياته إلى أن الله تعالى خلق هذا الكون بالحق، وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة وناموس، وأن الإنسان مخلوق قصداً وغير متروك سدى. خلقه الله ليقوم بمقام الخلافة في الأرض، ووهبه من الطاقات المكونة ما يكفي الواجب المفروض عليه فيه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك العمل والإبداع والحياة .

فالإنسان مستخلف في هذه الأرض مسلط على كل ما فيها، مهية له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده، مسخر له ما في السماوات وما في الأرض، مذل له كثير مما حوله من الكائنات وقوى الكون من أكبر الأجرام التي تؤثر في حياته إلى أصغر الكائنات التي يستطيع الاستفادة منها كالنحل والذرة.^(٢٥٩)

(٢٥٧) د. عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٥ .

(٢٥٨) انظر: البقرة: ٣٠، والأعراف: ١١ والإسراء: ٧٠، والتين: ٤، والانفطار: ٦ - ٨ .

(٢٥٩) في ظلال القرآن م١/١٦، ٢٠٧ وانظر عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية، ص ٤٢ .

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات الدالة على تسخير ما في السماوات وما في الأرض
جميعا للإنسان مثل:

قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ)^(٢٦٠)

وقوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)^(٢٦١)

وقوله عز وجل :

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)^(٢٦٢)

وكقوله تعالى : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)^(٢٦٣)

كما يفصل الله عز وجل في سورة النحل في الآيات من ١٤ إلى ١٨ كثيرا من الكائنات
التي سخرها للإنسان ليستفيد منها في حياته، ويستعين بها على أداء وظيفته، وهي كائنات يمكن
رؤيتها بالعين على مد البصر في السماوات والأرض : الأنعام، والماء النازل من السماء تتلقاه
الأرض فتبتت به الزروع المختلفة ومن كل الثمرات، والليل والنهار يتعاقبان لمصلحة العباد،
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله تعالى لمنفعة الإنسان، والبحر تجري فيه الفلك

(٢٦٠) لقمان : ٢٠ .

(٢٦١) الجاثية : ١٣ .

(٢٦٢) البقرة : ٢٩ .

(٢٦٣) الاعراف : ١٠ .

مسخرة بأمر الله لمصالح الناس ويجود باللحم الطرى واللؤلؤ والمرجان، والأرض المذللة للعباد، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق .

والقرآن حين يعلن أن الله سخر هذا الكون للإنسان فإنه يهدف إلى تقرير حقيقة هامة، يجب أن يعيها هذا الإنسان، وهى أن موقف الإنسان من القوى الطبيعية أو الكونية هو موقف التعرف والصداقة لا موقف التخوف والعداء، وذلك لأن قوة الإنسان وقوة الكون صادرتان عن إرادة الله ومشيتته، محكومتان بإرادة الله ومشيتته، متناسقتان متعاونتان فى الحركة والاتجاه .

ومعنى هذا أن الإنسان يعيش فى كون مأنوس، وعالم صديق ودود، وأن وسيلته إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فى قوى الكون، ويتعرف إليها، ويتعاون وإياها ويتجه معها إلى الله ربه وربها. وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا فذلك لأنه لم يتدبرها، ولم يتعرف إليها ولم يهتد إلى الناموس الذى يسيرها .

ولقد درج الغربيون على التعبير عن استخدام قوى الكون الطبيعية بقولهم «قهر الطبيعة»، وهذا التعبير يدل على نظرة الغرب المقطوعة الصلة بالله تعالى ، وبروح الكون المستجيب لله سبحانه. فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم، الموصول الروح بروح هذا الكون المسبحة لله رب العالمين - فيؤمن بأن هناك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة .. إنه يعتقد - كما أوحى إليه القرآن - أن الكون ليس عدوا ولا خصما للإنسان يصارعه ويغالبه، إنما هو من خلق الله تعالى، وهو صديق لا تختلف اتجاهاته عن اتجاهات الحياة والانسان، والله سخره للإنسان ابتداء، ويسر له كشف أسرارهِ ومعرفة قوانينه، وأن على الإنسان أن يعمل جاهدا على اكتشاف هذه القوانين والانتفاع بها، وأن يشكر الله على ذلك، فالله هو الذى يسخر له الكون وليس هو الذى يقهره .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حياة الإنسان تجاه قوى الطبيعة، ولن تقوم بينه وبينها المخاوف، بل إنه يتأمل هذه القوى المسخرة له بأذن الله تعالى، ويتعرف أسرارها حتى تبذل له معونتها، وتكشف له عن أسرارها فيعيش معها فى كون مأنوس صديق ودود. وما أروع قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو ينظر إلى جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ففى هذه

الكلمات الشفافة الوضيفة كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد - صلى الله عليه وسلم - من ود وألفة وتجاوب بينه وبين الكون في أضخم وأخشن مجاله (٢٦٤) .

وحين نستعرض آيات الكون في القرآن الكريم نجد أنه لم يجعل الوشيجة التي تربط الإنسان بالطبيعة وشيجة الضعيف بالقوى، أو الخائف بما يرهبه، بل جعل ما بين الطبيعة والإنسان انسجاما ومحبة وألفة ومودة ورحمة، وأخذ يقرها إليه بالأوصاف التي تجبها إلى نفسه، فالله تعالى حين خلق الأرض للإنسان

جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَامًا ... (٢٦٥)

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (٢٦٦)

ويقول : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
(۞) أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا) (٢٦٨)

(٢٦٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ١/٢٥ ، ٢٦٠ ، والعدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢٦٥) فصلت : ١٠ .

(٢٦٦) النحل : ١٥ .

(٢٦٧) الملك : ١٥ .

(٢٦٨) المرسلات : ٢٥ ، ٢٦ .

فالصلة بين الأرض والبشر - كما توضحها هذه الآيات - هى صلة الأم بأبنائها، فهى مستقر لهم ومطمأن، وهى متاع لهم ومنفعة، وكل ما فيها من الخيرات فهو نعمة لهم ما داموا أحياء، حتى إذا انتقلوا إلى دار القرار كانت لهم مشوى وملجأ، فمنها بدءوا وإليها يعودون .

والسواء بكواكبها جزء من الكون، وكل ما فيها صديق مسعف للإنسان
كقوله تعالى : (وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا)^(٢٦٩)

ويقول تعالى : (هُوَ الَّذِي
جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحَسَابِ)^(٢٧٠)

ويقول : (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۖ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۖ
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۖ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)^(٢٧١)

والبحر بكل ما فيه رحمة ونعمة ومنفعة... رحمة حين تجرى فيه الفلك بأمر الله تعالى؛ لتتقل الناس إلى أماكن تجارتهم ومطالبهم ومعاشهم التماسا لرزق الله تعالى وابتغاء لفضله بالتجارة^(٢٧٢)، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطرى وغير ذلك من منافع البحر^(٢٧٣)

(٢٧٢) تفسير الطبرى ١٢٢/١٥ طبعة البايى الحلبي الثانية .

(٢٧٣) الزمخشري الكشاف ١١٣/٣ .

(٢٦٩) فصلت : ١٢ .

(٢٧٠) يونس : ٥ .

(٢٧١) النبأ : ١٢ - ١٦

قال الله تعالى : (رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْسِلُ
رُوحَهُ فِي الْأَنْفُسِ أَفَرَأَيْتُمْ لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَا يَتَّبِعُكُمْ مِنْ قُدْرَةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ رَحِيمًا)^(٢٧٤)

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٢٧٥)

أما الليل والنهار فقد حببهما القرآن إلى الإنسان أيضا، فلم يجعلها متنافرين متصارعين،
أو قوتين مهلكتين تتعاقبان على إفنائه، بل بين أن هذا التعاقب إنما هو لمنفعة الإنسان وخيره في
هذه الحياة، ليسكن العباد في الليل، ويتصرفوا في النهار في ابتغاء رزق الله تعالى وليعلموا -
باختلافهما - عدد السنين وانقضاءها، وحساب ساعات النهار والليل^(٢٧٦)

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةً
الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ
وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)^(٢٧٧)

(٢٧٤) الإسراء : ٦٦ .

(٢٧٥) الجنانية : ١٢ .

(٢٧٦) تفسير الطبري ٤٨/١٥ - ٤٩ .

(٢٧٧) الإسراء : ١٢ .

ويقول : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
(٢٧٨)
يَسْمَعُونَ)

ويقول : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)
(٢٧٩)

والصلة التي تربط الإنسان بظاهرة الرياح - في التصور القرآني - هي صلة الرحمة والخير والمنفعة، وهي لا تذكر مقترنة بالعذاب إلا عند الإخبار عن أحوال الأمم التي كفرت برهبها وكذبت الرسل. ومن أجل هذه المعاني الجميلة وصفت في القرآن بأنها «بشرى» وبأنها «مبشرات» يرسلها الله تعالى للبشارة بالغيث ، ولإذابة الرحمة، وهي نزول المطر وحصول الخصب، وزكاء الأرض وإزالة العفونة من الهواء، ولتجري الفلك في البحر عند هبوبها، لينتفى العباد من فضل الله تعالى بتجارة البحر^(٢٨٠) قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
(٢٨١)
مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ

(٢٧٨) يونس : ٦٧ .

(٢٧٩) الفرقان : ٤٧ .

(٢٨٠) الزمخشري : الكشاف ٥١١/٢ .

(٢٨١) الفرقان : ٤٨ .

(مِّن رَّحْمَتِهِ ۖ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٢٨٢))

وهكذا يظهر الكون - في ضوء التصور القرآني - صديقا ودودا للإنسان، يتعاطف معه، ويوجد له بكل ما أودعه الله تعالى فيه من خير وبركة ونفع، وهو تصور يوحى بالإيجابية، ويحمل الإنسان على النظر إلى الكون نظرة المتفائل المستفيد لا نظرة الخائف المتضرر .

ولا شك أن هذه النظرة تشعر الإنسان بفضل الله تعالى عليه وعنايته ورحمته به، وتربي عواطفه على الخضوع لله تعالى والاعتراف له بالنعمة والفضل، وتدفعه إلى حمد الله وشكره وتسبيحه، كما أنها تربي العقل على مبدأ علمي عملي، هو مبدأ التقنية واستخدام القوانين العلمية وقوى الكون لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته^(٢٨٣) .

وهذا ما يتطلبه الإسلام من أتباعه في كل جيل وقبيل، حيث يدعوهم لمعرفة الكون والكشف عن سننه وإدراك نواميسه وأسراره، والتعامل معه معاملة صحيحة ناشئة عن ذلك الإدراك والتعارف والتجاوب، لأن هذه السنن والنواميس هي التي تمنح الإنسان المعادلات التي يتمكن بها من الدخول إلى صميم هذا التركيب المعجز لبنية الكون والعالم، من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من التطبيقات العلمية، تمضي بالحياة البشرية قدما صوب الأحسن والأرقى، وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات، ليكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى السماء، وتلبية حاجاته الروحية التي بها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات^(٢٨٤) .

وتبدو هذه النظرة الإسلامية، التي تواخى بين الإنسان والكون، على جانب كبير من الأهمية إذا نحن قارناها بتصوير العهد القديم للكون، ذلك التصور الذي يتسم - على

(٢٨٢) الروم : ٤٦ وانظر أيضا: الحجر : ٢٢، الروم : ٤٨ ، وفاطر : ٩ .

(٢٨٣) عبدالرحمن النحلاوي : أصول التربية الإسلامية، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٨٤) إبراهيم بن علي الوزيري: على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، ص ١٢٠ .

الأكثر - بالتخويف والوعيد والتشائم، فالبحر في مفهوم العهد القديم يرتبط بالشر، ويقرن بالمخلوقات الأسطورية المخيفة، ويظهر هذا التصور في الكلام الذي أنطق به كاتب العهد القديم أيوب - عليه السلام - وهو يخاطب الإله ضجرا لما أصابه من ضر قائلا: «أبحر أنا أم تتين حتى جعلت على حارسا»^(٢٨٥) ؟ كما يبدو أيضا في قول أشعيا: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي لويثان الحية ... ويقتل التين الذي في البحر»^(٢٨٦) .

والليل والنهار يرتبطان بالشر والتشاؤم أيضا في مفهوم العهد القديم، فقد روى مثلا على لسان أيوب عليه السلام قوله: «ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه، والليل الذي قال: قد جبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاما لا يشرق عليه النهار، أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة»^(٢٨٧) .

ومن المؤكد أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن نبي الله الصابر أيوب عليه السلام، فلا بد أن يكون من جملة ما نسبته اليهود إلى الأنبياء - عليهم السلام - بغير حق. كما يبدو ارتباط الشر بالليل والنهار فيما روى على لسان حزقيا من أنه عندما أصيب بمرض الموت أخذ يتألم ويصرخ، ويعزو إلى الليل والنهار السبب في إفئائه وانقضاء حياته^(٢٨٨) . وهنا يحملنا تداعى المعانى إلى تذكر ما قالته دهرية العرب في الجاهلية فيما يشبه هذا المفهوم كقول المسجاح بن سباع الضبي :

وأفئانى ولا يفنى نهار وليل كلما يمضى يعود
وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد^(٢٨٩)

كذلك اقترنت الرياح بالشر دائما في مفهوم العهد القديم^(٢٩٠)، واقترنت الأرض أيضا باللغة وإنبات الشوك والحسك، فقد جاء في سفر التكوين في قصة الخليقة أن الله تعالى قال

(٢٨٥) سفر أيوب : أصحاح ١٢/٧ .

(٢٨٦) سفر إشعيا : أصحاح ١/٢٧ .

(٢٨٧) سفر أيوب : أصحاح ٣/٣ - ٧ .

(٢٨٨) سفر إشعيا : أصحاح ١٢/٣٨ - ١٣ .

(٢٨٩) أبو تمام: الحماسة ٤١٧/١ .

(٢٩٠) انظر مزامير: المزمور ٥/١١ - ٦، وسفر أيوب ٨/٤ - ٩ .

لآدم: «لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك ... وشوكا وحسكا تنبت لك» (٢٩١) .

ويلاحظ من جهة أخرى أن التصور القرآنى المؤاخى بين الإنسان والكون يبرز فكرة «التوازن» بين فاعلية الإنسان وفاعلية الكون، وبين مقام الإنسان ومقام الكون، حيث سلم التصور الإسلامى فى هذه النقطة من جميع التقلبات التى صاحبت الفكر البشرى كلما انحرف عن منهج الله تعالى، فقد كان أفلاطون - مثلا - يضع المادة أو الهوى فى الدرك الأسفل من القيمة والاعتبار، ويرى أنها مقاومة للعقل المجرد، وليست موجدة بمشيئته من العدم (٢٩٢)، كما كان أفلوطين - فى الأفلاطونية المحدثة - يضع المادة فى الدرك نفسه (٢٩٣). والنصرانية - كما صنعتها الكنيسة - اعتبرت الشر كله ممثلا فى عالم الجسد أى المادة، والخير كله ممثلا فى عالم الروح، ومن ثم اقتضى الأمر احتقار كل ما هو مادى .

وبينما كان عالم المادة ينبذ هذا النبذ فى تلك الفلسفات والمعتقدات، يقوم فى القرن التاسع عشر من يجعل من الطبيعة إلهًا، ومن العقل البشرى مخلوقًا من مخلوقات هذا الإله، كما فعل «كومت» و «فيشته» من زعماء المذهب الوضعى، ومن يجعل جانبا من عالم المادة - وهو الاقتصاد - إلهًا، يخلق العقول والأديان والفلسفات والأخلاق كما فعل «كارل ماركس» ويحط من قدر الإنسان تجاه هذا الإله - الاقتصاد - فيجعله عاملا سلبيا يتلقى ويتأثر فقط دون أن يوجه أو يؤثر .

بين هذا الغلو والتطرف، من هنا ومن هناك ، يقف التصور الإسلامى على قاعدة الحقيقة الثابتة المستقرة، فيعلن أن الله تعالى هو المبدع الخالق المدبر، والكون والإنسان من خلق الله وإبداعه، وبينهما من التفاعل والتناغم والتناسق ما يجعل لكل منهما دورا فى حياة الآخر، والإنسان هو الأكرم، وهو الأكثر إيجابية وفاعلية، وهو الذى سخرت له المادة يبدع فيها وينشئ ويغير فيها ويطور، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله تعالى فيها، ويستخدم هذه الأسرار فى ترقية الحياة وإعمار الكون وفق وظيفة الخلافة التى خصه الله تعالى بها . وتكريم الوجود

(٢٩١) سفر التكوين: أصحاح ١٧/٣ - ١٨ .

(٢٩٢) عباس العقاد: الله ، ص ١٣٧ .

(٢٩٣) السابق، ص ١٨٨ .

الإنسانى - مع عدم احتقار الوجود الكونى - يحقق لهذا الإنسان مقامه وكرامته، ويجعل حياته ومقوماته أعز وأكرم من أن تمس من أجل توفير أى قيمة مادية أخرى، وذلك مع عدم الإخلال بالقيم المادية والإبداع فى عالم المادة. (٢٩٤)

نهاية الكون وفناءه

إن القارىء لتاريخ الفلسفة والأديان يجد أن كثيرا من أمم الحضارات الأولى، كالآشوريين والبابليين والمصريين وغيرهم - كانوا يقدسون عناصر الكون، ويرون أن كل عنصر من عناصر الطبيعة السماوية مختص بإله فللسماء إله، وللشمس إله، وللقمر إله، وللزهرة إله، بل إن هذه العناصر نفسها كانت آلهة فى الفكر الوثنى القديم (٢٩٥).

ومن هذا المنطلق كانت تلك الأمم تضى على هذه العناصر السماوية صفة الأزلية والأبدية وتنزهها عن الفناء، فالبابليون - مثلا - كانوا يؤمنون بخلود الإله «الشمس» كما أن قدماء المصريين كانوا يصفون الإله «أتوم» الذى هو اسم للشمس الغاربة بأنه الإله السرمدى الذى لا يفنى والذى يفيض الحياة على العالم (٢٩٦). ولا شك أن هذا تصور ميثولوجى يتجافى عن التفكير المنطقى السليم فضلا عن أنه يهبط بقيمة الإنسان، ويهدر كرامته، ويجعله تابعا ذليلا لعناصر كونية سخرها الله له، وخلقها لمنفعته ومصلحته.

فإذا انتقلنا إلى عصر الفلسفة وجدنا فى أقوال فلاسفة اليونان ما يؤيد هذا المفهوم، فالكواكب فى تصورهم غير قابلة للفناء، بل هى خالدة لا يتطرق إليها الفساد والانحلال. يقول أرسطوطاليس فى مقالة اللام - فيما يحكيه عنه شارحه «ثامسطيوس» - : «إن الطبيعة طبيعتان: طبيعة مستعلية على الكون والفساد بكلياتها وجزئياتها يعنى الفلك والنيرات. وطبيعة يلحق جزئياتها الكون والفساد - لا كلياتها - يريد بالجزئيات الأشخاص وبالكليات

(٢٩٤) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٢٩٥) د. كاسد الزيدى : الطبيعة فى القرآن الكريم، ص ١٧ - ١٩.

(٢٩٦) أنطون زكرى : الأدب والدين عند قدماء المصريين، ص ٧٠.

الاستقصات»^(٢٩٧). ويقول الاسكندر الأفروديسي موافقا أرسطوطاليس على رأيه: «ولما لم يكن يحيط بالفلك شيء آخر، ولا كان الزمان جاريا عليه، لم يجوز أن يفسد الفلك ويكون، فلم يكن قابلا للكون والفساد»^(٢٩٨). وهذا ما ذهب إليه أيضا ثامسطيوس حيث يقول: «والكواكب نيران مشتعلات، حصلت تراكيبيها على وجه لا يتطرق إليها الانحلال؛ لأنها لا تقبل الكون والفساد والتغير والاستحالة»^(٢٩٩).

ولا نحسب أن هناك فرقا بين تصور أمم الحضارات الأولى لأبدية الكواكب واستعلانها على الانحلال والفساد، وبين تصور فلاسفة اليونان، سوى ما اتسم به مفهوم الفلاسفة من تعليل أخرجه من نطاق الميثولوجيا إلى دائرة التفلسف.

وإذا قارنا هذه التصورات الوثنية بالتصور القرآني وجدنا الأمر على خلاف ذلك تماما، فليس ثمة شيء من الكون بخالد على الإطلاق في القرآن الكريم، بل إن جميع عناصر الكون مآلها إلى الزوال والفناء، وفي جملتها عناصر العالم العلوى من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأجرام السماوية، فكما أن لكل شيء في الدنيا أجلا ينتهى إليه لا محالة بصفته الفردية وتعترية آثار الفناء والزوال، كذلك لنظام العالم الذى نعيش فيه أجل لا بد أن ينتهى إليه^(٣٠٠)، ولا بد مع انتهائه إليه أن يتطرق إليه الاختلال والفناء والزوال^(٣٠١).

ويحدث هذا حين يأتى أمر الله تعالى ، وتحين الساعة التى حددها - سبحانه - لنهاية هذا العالم، حيث يختل نظام الأفلاك، وتثور السماء مورا، وتزلزل الأرض زلزالها، ويتناثر كل شيء فى هذا الوجود، وهذا هو الموعد المضروب للحساب والجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا، والانتهاى إلى العالم الآخر الذى يختلف فى طبيعته عن عالم الأرض اختلافا كاملا . وهذا الموعد سر مغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، كما قال سبحانه :

(٢٩٧) الشهرستاني: الملل والنحل (على هامش الفصل لابن حزم ١٤/٤) .

(٢٩٨) المرجع السابق، والصفحة نفسها .

(٢٩٩) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٣٠٠) انظر سورة الأحقاف : ٣، والرعد : ٢ .

(٣٠١) أبو الأعلى الموددى : الحضارة الإسلامية، ص ٢٣٦ .

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)^(٣٠٢)

وقال :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ)^(٣٠٣)

ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع انقلاب كونى هائل، وحدث دمار كامل فى العالم العلوى والعالم السفلى، يلف الطبيعة والإنسان على السواء. ويتمثل ذلك الدمار فى انشقاق السماء وتصدعها، وبرودة الشمس وانطفاء شعلتها وانتثار النجوم وانطماس ضوئها، وارتجاج الأرض وزلزالها وتخليها عن كل ما فى جوفها، وتفجير البحار وتسجيرها، وبعثرة القبور ونشأ أعماقها، ونسف الجبال وتذريتها فى الهواء واستحالتها إلى شئٍ أشبه بالسراب أو العهن المنفوش .

والتأمل فى سورة التكوين، والانفطار، والانشقاق ، والقيامة ، والمرسلات، والحاقة، والقارعة، والزلزلة - يجدها حافلة بمشاهد هذا الانقلاب الكونى الرهيب الذى يتعرض له الوجود حين يأتى هذا اليوم الموعود، فينفطر عقد نظام الكون، وتتناثر أجزاؤه، وينتهى إلى أجله المقدر، ثم تنتهى الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا فى هذا الكون المعهود .

ولما كان المقام لا يتسع لاستعراض كل النصوص التى تصور نهاية العالم، فحسبنا أن نختار بعض هذه النصوص لنرى كيف صورت لنا نهاية الكون وفناءه أبرع تصوير وأبينه :

النص الأول - قوله تعالى :

(٣٠٢) لقمان : ٣٤ .

(٣٠٣) الأعراف : ١٨٧ .

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ②)
 وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④
 وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥
 وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧
 بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩
 وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫
 وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِرَتْ (٣٠٤)

إن الناظر في هذه الآيات يرى أن الهول في المشهد المعروض يبدأ بالبعيد الضخم «الشمس والقمر والنجوم»، وينتقل إلى القريب الضخم «الجبال والنوق»، ثم ينحدر بعد ذلك إلى الوحوش والبحار في تناسق مؤثر بديع، وحين ينتهى بالإنسان تكون الجنة والنار قد أعدتا للشواب والعقاب، فالظهور في نهاية المشهد يقابله ذلك الفناء الذى في بدايته، فناء الشمس والنجوم والجبال (٣٠٥).

فلننظر بعد هذا فيما فهمه المفسرون من معنى تكوير السماء، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، ودلالة ذلك على فناء الكون واندثاره. تقول الآية الأولى: «إذا الشمس كورت» قال الفخر الرازى: «وفي التكوير وجهان: أحدهما التلفيف على جهة الاستدارة كتكوير العمامة ... ثم إن الشيء الذى يلف لا شك أنه يصير مختلفيا عن الأعين، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس وتصييرها غائبة عن الأعين بالتكوير .. الوجه الثانى يقال: كورت الحائط وهورته إذا

(٣٠٤) التكوير: ١ - ١٤ .

(٣٠٥) د. كاسد الزيدى: مرجع سابق، ص ٦١ .

طرحته حتى يسقط ... فقلوه: «إذا الشمس كورت» أى ألقيت ورميت عن الفلك» (٣٠٦) .

وقال الزمخشري: «في التكوير وجهان: أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها، أى يلف ضوءها لفا، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها .. أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها، لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوى، وأن يكون من طعنه فجوره وكوره إذا ألقاه، أى تلقى وتطرح عن فلكها، كما وصفت النجوم بالانكدار» (٣٠٧) .

وأما قوله: «وإذا النجوم انكدرت» فقد فسر الزمخشري الانكدار بالانقضاء، (٣٠٨) وفسره الرازي بالتناثر والتساقط، كما قال تعالى: «وإذا الكواكب انتثرت»، وفسره الألوسي بالانقضاء والسقوط، ومنه انكدر البازي إذا انقض بسرعة على ما يأخذه (٣٠٩) .

وأما قوله: «وإذا الجبال سيرت» فمعناه أنها قلعت عن الأرض وطيرت في الهواء (٣١٠) كما قال تعالى: «وسيرت الجبال فكانت سرابا» (٣١١) . وهكذا نجد أن تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال لم يخرج عن معنى زوالها وانحلالها واندثارها يوم تقوم الساعة:

(يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا)
(٣١٢)
لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

النص الثانى: قوله تعالى :

(إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ)

(٣٠٦) الرازى : مفاتيح الغيب ٣٣٧/٨ - ٣٣٨ .

(٣٠٧) الزمخشري : الكشف ٣/٣١٥ .

(٣٠٨) المرجع السابق، والصفحة نفسها .

(٣٠٩) الألوسي: روح المعاني ٩/٣٠٤ .

(٣١٠) الشوكاني: فتح القدير ٥/٣٨٨ .

(٣١١) النبأ : ٢٠ .

(٣١٢) إبراهيم : ٤٨ .

أَنْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٣١٣﴾

إن المشهد الذى يعرضه هذا النص فيه صورتان متقابلتان من صور الهول الذى تنخلع له القلوب من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير، وتهزه هزة الانقلاب المخيف يوم القيامة: الصورة الأولى تعرض الطبيعة الساهوية وما يشملها من الزوال والفناء: انشقاق السماء بعد التمامها، وانتثار الكواكب بعد تماسكها. والصورة الثانية تعرض الطبيعة الأرضية وما يصيبها من تغير وتبدل: تفجير البحار بعضها فى بعض، واختلاط العذب منها بالمالح^(٣١٤)، أو تفجير مائها إلى عنصرين: الأوكسجين والهيدروجين، أو تفجير ذرات هذين الغازين - كما يقع فى تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم - فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة! وأيضاً بعثرة القبور، وقلب ترابها وإخراج الموتى من أعماقها^(٣١٥).

ويلحظ فى المشهد كله شمول ذلك الهول عناصر الكون برمته جميعا بعيدة وقريبة، حتى لا يفلت شئ من أخذ الزلزلة الجائحة، وذلك الانقلاب المروع المؤذن بزوال الكون وفنائه.

وقد التفت الرازى - وهو الفيلسوف - إلى التقابل بين الحقيقة الكونية التى تقرها الآيات السابقة - حقيقة انحلال الأفلاك وزوالها - وبين مفهوم الفلاسفة القدامى الذين كانوا يقولون بخلود الكواكب واستحالة انحلال الأفلاك وزوالها، فأخذ يناقش هؤلاء الفلاسفة مناقشة الفيلسوف البصير، ويفند آراءهم، فيقول: «إن الفلاسفة ينكرون الحرق والالتئام على الأفلاك، ودليلنا على إمكان ذلك أن الأجسام متائلة فى كونها أجساما، فوجب أن يصح على كل منها ما يصح على الآخر. وإنما قلنا متائلة؛ لأنه يصح تقسيمها إلى الساهوية والأرضية، ومورد التقسيم مشترك بين القسمين، فالعلويات والسفليات مشتركة فى أنها أجسام، وإنما قلنا

(٣١٣) الانفطار: ١ - ٥ .

(٣١٤) الشوكاني: فتح القدير ٣٩٥/٥ .

(٣١٥) سيد قطب: فى ظلال القرآن ٣٨٤٦/٦ - ٣٨٤٧ .

إنه متى كان ذلك وجب أن يصح على العلويات ما يصح على السفليات؛ لأن المماثلات حكمها واحد، فمتى يصح حكم على واحد، وجب أن يصح على الباقي» (٣١٦) .

والرازي يشير هنا إلى أن الكواكب من جملة عناصر الطبيعة، وبما أنها جميعا محدثة وذات خصائص واحدة، فيجب أن تتحد جميعا فيما يطرأ عليها من تغير وتبدل، فالذى يقول بجواز فناء الطبيعة الأرضية يلزمه أن يقول بفناء السماوية كذلك . وبذلك يكون تفرد الكواكب بالخلود، دون سائر عناصر الطبيعة، أمرا منافيا للعقل وبعيدا عن طبيعة هذا الكون وتكوينه، وخاصة أن القائلين بخلود الكواكب لم يقولوا بخلود بقية العناصر أيضا (٣١٧) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكشف العلمية الحديثة التى اهتدى إليها العلماء تقف وراء الحقيقة التى قررها القرآن الكريم بصدد مصير الكون ونهايته ، وصيرورته إلى العدم والفناء، حين يأذن الله تعالى. ومن هذه الكشف القانون المسمى «قانون الطاقة المتاحة» أو «ضابط التغير الحرارى» Law of Entropy الذى يقرر أن الحرارة تنتقل دائما من «وجود حرارى» إلى «عدم حرارى» والعكس غير ممكن على الإطلاق، فإن ضابط التغير هو التناسب بين «الطاقة المتاحة» و «الطاقة غير المتاحة» .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام يتضح أن عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوما بعد يوم، وأنه لابد من مجئ وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، ويترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الطبيعية والكياوية، وتنتهى حياة العالم مع هذه النتيجة (٣١٨)، التى هى مظهر من مظاهر سنة الله فى الكون.

ويقرر العلماء أيضا أن هناك ظواهر طبيعية تقع على سطح الأرض فى صورة «قيامات صغرى» تشير إلى حدوث «القيامة الكبرى» التى تشمل الكون كله. ومن هذه الظواهر مثلا ظاهرة الزلازل التى تحدث نتيجة انفجار البراكين، فتهز الأرض هزا عنيفا، وتؤثر كثيرا فى حياة

(٣١٦) الرازى : مفاتيح الغيب ٣٤٣/٨ .

(٣١٧) د. كاسد الزيدى: الطبيعة فى القرآن الكريم، ص ٦٥ .

(٣١٨) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى، ص ٧٤ - ٧٥ .

الإنسان المعاصر^(٣١٩) الذى لا يملك شيئا يقاوم به هذه الزلازل رغم تقدم العلم والتكنولوجيا، فهى نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة لا يزيد سمكها عن خمسين كيلومترا، وهذه القشرة ليست، بالنسبة إلى الكرة الأرضية، إلا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح. وفي هذا الصدد يقول «جورج جاموف»: «إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى: نحن واقفون على لغم «ديناميت» عظيم، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت (أى حينما يأذن الله تعالى) ليدمر النظام الأرضى بأكمله»^(٣٢٠).

«إن هذه الزلازل «قيامه» على نطاق غير واسع، فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران وسقف الأبنية المسلحة الفخمة، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها وأسطحها أعلاها، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معدودة، وعندما تسير طواير النعوش وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأساك على ساحل البحر، فتلكم هى «قيامه» الزلزال ... وهى فى نفسها تنبئ عن قيامه كبرى، سوف تفجأنا غداة يوم على غرة منا. إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها كما يشاء.

وهذه هى حال الفضاء الخارجى، فالكون فضاء لا حدود له، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها، هى السيارات والنجوم، بأقصى سرعة لا يمكن تخيلها، وهذا الدوران يمكن أن يتحول فى أى يوم^(٣٢١) إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره. وفى تلك اللحظة الرهيبة يكون ما فى الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهى تواصل رحلتها فى الجو، ثم

(٣١٩) أقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسى) الصينى الذى وقع عام ١٥٥٦م ولقى أكثر من ٨٠٠٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة، وقد وقع زلزال فى (الشونة) عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥م فدمر المدينة كلها، وأباد ثلاثين ألف نسمة فى ست دقائق، وقد قيل: إن هذا الزلزال هز ربع أوروبا.

(٣٢٠) وحيد الدين خان: المرجع السابق، ص ١١٣ - ١١٤.

(٣٢١) يحدث هذا فى اليوم الذى حدده الله تعالى لنهاية هذا العالم، حين ينفرط عقد الكون، ويختل نظامه، وتزول السماوات والأرض استجابة لأمر الله تعالى وإذعانا لمشيئته وتقديره، كما قال سبحانه: «إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده»، وكما قال فى شأن كل من الساء والأرض واستسلامها لامره يوم القيامة: «وأذنت لربها وحقت».

تصطدم كلها مرة واحدة ... إن فكرة الآخرة التى تقرر أن نظام الكون الموجود حاليا سوف يدمر يوما لا تعنى سوى أن واقع الكون ، الذى نشاهده فى صورة صغيرة أولية، سوف يتجلى يوما فى صورة نهائية كبرى، فالقيامة حقيقة معلومة فى أعماقنا، ونحن اليوم نعرفها فى حد الإمكان، ولسوف نلقاها غدا فى صورة الواقع» (٣٢٢) .

ولكن ماذا بعد فناء الكون، وصق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ؟ إنه بعث الموتى من القبور فى صورة الجراد المنتشر، وحشرهم إلى الله تعالى للحساب، والقضاء بينهم بالحق ، وجزاء كل نفس بما كسبت، ثم سوق الذين كفروا إلى جهنم زمرا، وسوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا .

وتلك هى قضية «المعاد» وهى قضية جوهرية، وعقيدة إيمانية، وهى تحتاج إلى بحث مستقل أرجو- إذا مد الله تعالى فى العمر- أن أوفق إلى إنجازه، والله تعالى هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل. ونسأله جلت قدرته أن يؤمن روعاتنا يوم الفرع الأكبر، وأن يسوقنا مع الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، ويحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .



(٣٢٢) وحيد الدين خان : المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٦ .

(مصادر البحث ومراجعته)

كتب الأديان :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - العهد القديم - دار الكتاب المقدس - القاهرة ١٩٧٠ م .

المؤلفات :

- ١ - آدم عبدالله الألورى : الإسلام وتقاليد الجاهلية - مطبعة المدنى - القاهرة ١٣٩٧هـ .
- ٢ - إبراهيم بن على الوزير : على مشارف القرن الخامس عشر الميلادى - دار الشروق .
الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م .
- ٣ - إبراهيم مذكور (الدكتور) : فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه .
- ٤ - أحمد محمد جمال : محاضرات فى الثقافة الإسلامية - دار الشعب . القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٥ - أبو الأعلى المودودى : مبادئ الإسلام - الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية
١٩٧٧ م .
- ٦ - الألوسى (شهاب الدين السيد محمود البغدادى) : روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع
الثنائى - المطبعة الأميرية ببولاق - مصر - الطبعة الأولى ١٣٠١هـ .
- ٧ - أنطون زكرى : الأدب والدين عند قدماء المصريين - مطبعة المعارف . مصر - الطبعة
الأولى ١٩٢٣ م .
- ٨ - البيضاوى (ناصر الدين عبدالله بن عمر الشيرازى) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل -
القسطنطينية - ١٨٢٥هـ .

- ٩ - أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) : ديوان الحماسة بشرح التبريزي - مكتبة النوري - دمشق .
- ١٠ - ابن تيمية (أحمد بن عبدالحليم) : كتاب «النبوات» .
- ١١ - ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) : فتح الباري بشرح صحيح البخاري - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .
- ١٢ - أبو الحسن العامري : الإعلام بمناقب الإسلام - تحقيق الدكتور أحمد غراب .
- ١٣ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم - نشرة فان فلوتن. ليدن ١٨٩٥م .
- ١٤ - الرازي (فخر الدين محمد بن عمر) : مفاتيح الغيب - المطبعة الخيرية. مصر - الطبعة الأولى ١٣٠٨هـ .
- ١٥ - الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد) : المفردات في غريب القرآن - مطبعة البابي الحلبي. مصر ١٩٦٦ - تحقيق محمد سيد كيلاني .
- ١٦ - ابن رشد : مناهج الأدلة - تحقيق الدكتور محمود قاسم - الانجلو المصرية .
- ١٧ - الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) : الكشف عن حقائق التنزيل - مطبعة البابي الحلبي ١٩٤٨م .
- ١٨ - سيد قطب : في ظلال القرآن - دار الشروق ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م .
- ١٩ - سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته - مكتبة وهبة .
- ٢٠ - سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام - مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .
- ٢١ - الشريف الجرجاني : حاشيته على الكشف للزمخشري - دار المعرفة للطباعة والنشر - لبنان .
- ٢٢ - الشهرستاني (محمد بن عبدالكريم) : الملل والنحل (على هامش الفصل لابن حزم) مكتبة الخانجي - القاهرة .
- ٢٣ - الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) : فتح القدير - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٢٤ - الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن) : مجمع البيان في تفسير القرآن - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية .

- ٢٥ - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : جامع البيان عن تأويل آى القرآن - طبعة البابى الحلبي الثانية، ١٩٥٤م، وطبعة بتحقيق محمود محمد شاكر .
- ٢٦ - طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - شركة التجارة والطباعة المحدودة - الطبعة الثانية ١٩٥٥م .
- ٢٧ - عباس محمود العقاد : كتاب «الله» .
- ٢٨ - عباس محمود العقاد : إبليس - كتاب الهلال - دار الهلال - القاهرة ١٩٥٨م .
- ٢٩ - عبدالكريم عثمان (الدكتور) : معالم الثقافة الإسلامية - مؤسسة الأنوار - الرياض ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ٣٠ - على خليل أبو العينين : فلسفة التربية الإسلامية فى القرآن الكريم - دار الفكر العربى - الطبعة الأولى ١٩٨٠ .
- ٣١ - عماد الدين خليل : فى التفسير الإسلامى للتاريخ - المسلم المعاصر - بيروت - ربيع الثانى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م .
- ٣٢ - غوستاف لوبون (الدكتور) : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى - مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠م ترجمة عادل زعتر .
- ٣٣ - فرانك ألن : الله يتجلى فى عصر العلم «مقال: نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟» ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان - مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨م .
- ٣٤ - كاصد ياسر الزيدى (الدكتور) : الطبيعة فى القرآن الكريم - دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٠م .
- ٣٥ - كريسي موريسون : العلم يدعو للإيمان - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الخامسة ١٩٦٥م - ترجمة محمود صالح الفلكى .
- ٣٦ - الكلبي : كتاب الأصنام .
- ٣٧ - محمد عبدالله دراز (الدكتور) كتاب «الدين» مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ٣٨ - محمد المبارك : نظام الإسلام - العقيدة والعبادة .
- ٣٩ - محمد متولى الشعراوى (الشيخ) : القضاء والقدر - معجزات الرسول - إعجاز القرآن - مكانة المرأة فى الإسلام (دار الشروق ١٩٧٥) إعداد أحمد فراج .
- ٤٠ - ابن منظور : لسان العرب .

- ٤١ - نديم الجسر (الشيخ) : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن - طبعة المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
- ٤٢ - النووي (محيي الدين يحيى بن شرف) : صحيح مسلم بشرح النووي - دار الفكر - بيروت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- ٤٣ - وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى - المختار الإسلامي ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ترجمة ظفر الإسلام خان ومراجعة وتقديم الدكتور عبدالصبور شاهين .

